

منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث
في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954

مع الأمير عبد القادر

رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة

(1837-1838)

تأليف
أدريان بيربروجير



ترجمة و تعليق
الدكتور أبو القاسم سعد الله

http://albordj.blogspot.com

Adrien Berbrugger

Voyage au Camp d'Abd-el-Kader

(à Hamza...en Décembre 1837 et Janvier 1838)

Paris, 1839

(العنوان الأصلي للتأليف)

ردمك: 5 - 12 - 846 - 9961
الإيداع القانوني: 3483 - 2005

مقدمة المترجم [1]

تعتبر سنة 1837 مرحلة هامة في تاريخ العلاقات الجزائرية- الفرنسية. فبعد فشل الفرنسيين في احتلال قسنطينة وقّعوا مع الأمير معاهدة التافنة الشهيرة في ربيع سنة 1837 ليتفرغوا بعدها إلى إعادة الكرة على قسنطينة في خريف هذه السنة، ولما نجحوا في احتلال قسنطينة دخلوا في نزاع مع الأمير حول تفسير الحدود الشرقية التي أعطتها له المعاهدة، فبينما تمسك الأمير بنصه الذي فهم منه أنه يعطيه الحق في إقليم قسنطينة إلى حدود تونس، توقف الفرنسيون عند عبارة "وادي قدارة إلى قدام" التي فسروها بأن الأمير لا حق له في شرقي وادي بودواو حاليا (شرقي العاصمة)

[1] - سبق أن نشرت في مجلة (الذاكرة)، عدد أوت ، 1998.

وتنفيذا لحجته قام الامير بدخول إقليم قسنطينة وعسكر عند الونوغة والوادي الاكحل فترة، وجبى الضرائب التي هي علامة البيعة والطاعة من أهل المنطقة، كما دخل البويرة (برج حمزة)، ونصب خلفاءه على نواحي سطيف ومجانة والحضنة والزيبان، وراسل أعيان قسنطينة وإقليمها كما راسلوه وبعثوا إليه الوفود.

وقد أحس الفرنسيون بالخطر على احتلالهم لمدينة قسنطينة ولخططهم الاستراتيجية التي كانت تهدف إلى ربط العاصمة بقسنطينة عن طريق البر، والتوسع نحو الزيبان والجنوب، وبدأوا بإرسال وفد لاستطلاع نوايا الأمير في الجهة الشرقية، والتعرف على جيشه وإمكاناته الحربية، ونفوذه وسط الشعب، وهذا الوفد كان في ظاهر الأمر غير عسكري وغير سياسي، فهو مؤلف من "علماء" وشخصيات مدنية مهتمة بالطب والفن والقانون[1] ، وفيه أيضا قرافيني، قنصل

[1] ـ كان الوفد يتألف من أوروبيين وحضر جزائريين ويهود، وقد ذكر بيربروجير أسماء الأوروبيين السبعة الذين كانوا ضمن الوفد، لكنه سكت على ثلاثة من الحضر واليهود. على أنه صرح في مكان آخر من الرحلة بالتحاق ابن دوران اليهودي بهم.

الأمير لدى الفرنسيين الذين رفضوا الاعتراف به، وهو في نفس الوقت قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر، كما لحق بهم (ابن دوران) أحد أعيان اليهود بالعاصمة والذي كان الأمير قد ترك عنده مالا، وقيل إنه من جواسيسه أيضا.

وبينما لا نعرف بالضبط من الرحلة دور الشخصيات العضوة في الوفد فإن دور بيربروجير كان كبيرا، فهو لم يكن مجرد "مهتم" بالحياة العربية ووصف الأمير، ولكنه كان رجلا سياسيا وعالما وجاسوسا ومستشرقا من الدرجة الأولى ومؤرخا. جاء بيربروجير إلى الجزائر سنة 1835 رفقة المارشال كلوزيل المتحمس للاستعمار قبل أن يكون الاستعمار قضية كبيرة، وأصبح بيربروجير كاتبا عاما لكلوزيل، وقد رافقه في حملاته على معسكر وتلمسان ثم على قسنطينة، وكان يجمع الكتب والمخطوطات والوثائق

---

1 - ويبدو أن هذا كان خارج الوفد الرسمي، ولم يذكر بيربروجير من هم الفرسان الأربعة الذين كانوا يقودون القافلة سوى اثنين وهما: سي الملياني الحجوطي وسي مصطفى العامري (من بني عامر).

من العائلات والمساجد والزوايا ويحملها إلى العاصمة حيث استقر الاحتلال، ومن خلال التراث المكتوب.

كان بيربروجير يدرس عادات وتقاليد وتاريخ الجزائريين وأفكارهم ولغتهم ودينهم، وكان الجيش يتلقى منه "المعلومات" الضرورية لمعرفة "الاهالي" بعد أن يترجمها ويغربلها المستشرق الخبير، وفي نفس الوقت عيّن بير بروجير على رأس أول نواة لمكتبة عمومية في الجزائر (أصبحت هي المكتبة الوطنية اليوم) ومتحف يضم آثار الرومان والكنيسة الإفريقية قبل أن ينفصل المتحف عن المكتبة في آخر القرن الماضي.

إن رحلة بيربروجير إلى معسكر الأمير في آخر سنة 1837 جاءت إذن في ظرف سياسي خاص، والذي يتأمل وصف الطبيعة والسكان والمشاعر والطرقات وتفاصيل العادات والتقاليد سيدرك أن مهمة بيربروجير غير عادية، وليست هي كتابة رحلة من النوع الذي يعبر فيه المسافر أو المشاهد عن مشاعره

الخاصة حول ما يرى وما يسمع وما يحس، ولكن مهمته هي كتابة تقرير عن وضع السكان الاقتصادي والسياسي والعسكري وعن طبيعة المنطقة في الحرب والسلم، وعن خطط الأمير نحو الشعب ونحو الفرنسيين حاضرا ومستقبلا، ولذلك ننبه إلى ضرورة قراءة الرحلة بإمعان خاص يوجبه الظرف الذي كتبت فيه، والمعروف أن الرحلة قد نشرت في (مجلة العالمين)[1] خلال غشت 1838، ثم أضاف إليها بيربروجير نفسه ملاحق ونصوصا من رحلة أنطونين، ودي فونتين، وبيسونيل، والدكتور شو، وأعاد نشرها مستقلة في كتيب بباريس خلال أبريل 1839[2]، وننبه إلى أننا لم نترجم الملاحق والنصوص المذكورة مكتفين برحلة بيربروجير فقط.

لماذا نشر بيربروجير رحلته مرتين في ظرف عام واحد؟ ورغم أن الجواب سيتضح بنفسه من قراءة

---

1 - Revue des deux mondes, Août, 15, 1838.

2 - كتب لها مقدمة جديدة، في 30 مارس 1839، وحثّ فيها على القيام بالحملة المؤجلة على برج حمزة (البويرة).

الرحلة، فإننا نبادر إلى القول بأن بيربزوجير كان مثل كلوزيل من دعاة الاستعمار المبكرين، وكان ضد تمكين الأمير من الوقت والمعدات لبناء دولته، ومن رأيه أن الأمير كان يعمل على محاصرة الفرنسيين في بعض المدن الساحلية، وأنه لن يرتاح له بال حتى يجلو الفرنسيون نهائيا عن الجزائر، ولذلك فقد كان على الفرنسيين عدم إعطائه الفرصة لبناء جيشه وتوسيع نفوذه بين المواطنين ونقض الاعتراف له بالحدود الشرقية التي جاءت في معاهدة التافنة.

وإذا كان لا بد من التذكير ببعض التواريخ المهمة فإننا نشير إلى أن الأمير أرسل سنة 1838 وفدا برئاسة المولود بن عراش إلى فرنسا ليطلب من الملك لويس فيليب استعمال سلطته لوقف ممثليه في الجزائر عن خرق معاهدة التافنة، وفي نفس السنة انشغل الأمير بحصار عين ماضي الذي أخذ منه وقتا وجهدا كبيرين كان في أشد الحاجة إليهما لتأسيس أركان الدولة أثناء

الصلح مع الفرنسيين، ولعل الفرنسيين هم الذين كانوا وراء إطالة الحصار وتعقيد الخلاف بين الأمير وشيخ التجانية. أما سنة 1839 التي نشر خلالها بيربروجير رحلته من جديد، فهي السنة التي كان فيها المارشال فاليه، الحاكم العام، يبذل قصارى جهده لرشوة خلفاء الأمير بالمدية ومليانة، والتأثير على ابن عراش الذي كان في منصب وزير الخارجية للأمير ليغير من بنود معاهدة التافنة، وحين فشلت تلك الجهود لجأ المارشال فاليه إلى الحرب وخرق المعاهدة بالسيف، وهكذا فإن دور بير بروجير في هذه الأثناء كان دورا يؤكد موقف الإدارة الفرنسية بالجزائر، وهي الإدارة العاملة على تقويض السلم مع الأمير والقضاء على دولته قبل استفحال أمرها. وقد تحقق ذلك بعد حلول المارشال بوجو (1841) مجهزا بمائة ألف جندي وبالمال اللازم والضوء الأخضر من الحكومة والبرلمان الفرنسيين، وكل ذلك

كان يلبي رغبة بيربروجير التي عبر عنها في رحلته ثم في مقدمة كتابه سنة 1839.

وإن من الغرابة أن يذكر بيربروجير اسم ليون روش بطريقة يفهم منها البراءة التامة، فهل كان حقا لا يعرف مهمة هذا الجاسوس الذي أرسلت به المخابرات الفرنسية لدى الأمير؟ قد يكون ذلك، ولكننا نستبعده، ذلك أن بيربروجير كان من أساطين الإدارة هو نفسه، وكان مستشرقًا كما ذكرنا، ولا بد أنه عرف ليون روش قبل التحاقه بالأمير، كما عرف أباه الذي أوصاه عنه، والإلحاح في وصف رد فعل الأمير على طلب إرجاع روش إلى والده غير بريئ في حد ذاته، فقد يكون الهدف منه إزالة الشكوك حول روش ودوره لدى الأمير لا سيما ونحن نعرف أن بعض أصحاب الأمير يشكون في دور هذا الشاب الفرنسي الغريب بينهم.

ثم إن استعمال بيربروجير لوسائل دينية وعاطفية لدى الأمير للوصول إلى هدفه السياسي، يدل على خبث نية بيربروجير وحسن نية الأمير، فإهداؤه له نسخة من (دلائل الخيرات)- وهي في الواقع مسروقة- ، وحديثه عن وثائق الملكية التي اغتصبها من دار الأمير في معسكر (وربما اعتبرها هو غنيمة) دليل على ما نقول، كما أن تفسيره لتردد الأمير في منح رخصة له في التوجه نحو الجنوب (القبلة) لا يدل على تفهم حقيقي لطبيعة الجزائري، وكذلك تساؤل الأمير عن "حماقة" الأوروبيين في البحث عن الأحجار والنباتات وتجشمهم التعب والإرهاق من أجل الوصول إلى هدفهم، فهل صحيح أن الأمير يغيب عنه الهدف الحقيقي من استخدام العلم للسياسة؟

هذا، وننبه إلى أن نص بيربروجير لم يحتو إلا على تعاليق قليلة، وقد ترجمناها رغم وضوح بعضها أحيانا للقارئ العربي، ووضعنا أمامها حروف

أ،ب،ج،د.... وهي مذكورة في آخر الرحلة. أما التعاليق التي تحمل الأرقام: 1، 2، 3 فهي من وضعنا، وهي مذكورة في أسفل الصفحات، وقد استعملنا أحيانا نجوما هكذا (*) وهي في آخر الرحلة.

وقد أقدمنا على ترجمة هذه الرحلة لأنها تلقي الضوء على جوانب عديدة من قبل خبير في شؤون الاستعمار بالجزائر، فهي بالإضافة إلى تعريفنا بنوايا الفرنسيين عندئذ، تلقي الضوء على طبيعة الأرض والسكان والطرقات التي مر بها الوفد والأماكن التي توقف عندها، وحالة جيش الأمير النظامي والاحتياطي، وخططه في توحيد البلاد، وفي علاقته بأهل إقليم قسنطينة ومنطقتي زواوة والصحراء، كما نعرف منها تفاصيل عن شخصية الأمير نفسه، وعن شخصيات أخرى أمثال الحاج سيدي السعدي، والبركاني وعبد السلام المقراني، وابن نونة وابن علال، وبعض التقاليد العسكرية والدينية والاجتماعية أثناء الوضع الانتقالي

الجديد، وكمنع تعاطي الدخان علنا، وتحديد أماكن شرب القهوة، والنوبات الموسيقية العسكرية، ونظرة السكان لليهود، ومعاملة الأسرى. ومن المهم أن نلفت النظر خصوصا إلى ما جاء في الرحلة عن ابن دوران، ليون روش والقنصل قرافيني.

مينيابوليس،18مارس 1995.

نص الرحلة

مدينة الجزائر، في 30 مارس 1839

منذ بعض الوقت والاستعداد على قدم وساق لحملة موجهة نحو حمزة (البويرة). وهذه العملية التي تأجلت نظرا لبعض الظروف السياسية، سوف تتحقق طال الزمان أو قصر، ولا شك أن الأشخاص الذين سيعينون للمشاركة فيها لن يغضبهم أن يستفيدوا من الرحلة التي ننشرها والمقتطفات التي أرفقناها بها، وهي مجموعة من الكتابات حول المنطقة الواقعة بين مدينة الجزائر والبيبان، من قبل الأوروبيين الوحيدين الذين تمكنوا من زيارتها(*) ، وهكذا نكون قد جمعنا نماذج من كل المعلومات المعروفة عن هذه الأماكن وعن الأهالي الذين يسكنونها، وأيضا وجود الصعوبات المرتبطة بهذا

المشروع محل تقدير للعلاقة المزدوجة الخاصة بالمناطق المجتازة والسكان الذين في مقدورهم الدفاع عنها.

إن هذه الإصدارية، وهي بعيدة عن كل نوع من المزايدة، لأن العدد القليل من النسخ المطبوعة منها سوف لا توضع للبيع، يمكنها أن تكون مفيدة إلى حد ما لكثير من مواطنينا أمام الاحتمال القوي جدا لحملة ضد برج حمزة. إننا بدافع هذه النية على الأقل قد قمنا بتحرير الرحلة، ونحن نأمل بكل حماس أن النتيجة ستلبي رغبتنا.

تحركت قافلة (**) تتألف من سبعة أوروبيين[1] وثلاثة من الحضر ويهوديّين من مدينة الجزائر، يوم 28 ديسمبر 1837 باتجاه جبل جرجرة ، وكانت القافلة يقودها أربعة فرسان من جنود (الأمير) عبد القادر، وللوصول إلى هدف الرحلة كان علينا أن نجتاز القمم الأولى للأطلس الصغير، وأن نمر ببلاد سكانها هم القبائل الذين تعتبر شراستهم مضربا للمثل، إن الأخطار

التي يفترض عموما أنها تحف بهذه الجولة قد أعاقت الكثيرين من الفضوليين عن الإقدام على المغامرة. وإن التنبؤات المشؤومة التي تداعت إلى غير الحذرين(***) الذين أصروا على الرحلة دون أن يتركوا شبح "الخيانة البونيقية" (****) ينال من عزيمتهم. فأولئك القوم لم يكتفوا بتخويف المقدامين بحدوث كارثة مؤلمة، بل أنهم اختلقوا الكارثة نفسها، وبعد رحيلهم تناقلت الأفواه في أنحاء مدينة الجزائر كلها أنهم قد أجبروا على التوقف في طريقهم وأنهم نهبوا وضربوا، بل وقطعت رؤوسهم. إن هذه الأقاويل قد تلتها معلومات مفصلة، ومنها آخر ما نطق به الضحايا، وفي الوقت الذي كانت تروج فيه هذه الحكايات المفجعة كنا قد وصلنا سالمين ومعافين إلى هدف رحلتنا، وأكلنا في اطمئنان كامل الكسكسي عند مضيفنا عبد القادر، وبدل أن نتعرض إلى السرقة قدمت لكل واحد منا بغلة هدية، وبدل أن نتعرض نحن للضرب كنا نرى يوميا تفريق الأفواج العربية بالعصى،

وهي الأفواج التي كان يدفعها الفضول إلى التجمع حول خيمتنا.

وبينما مؤرخونا شبه الرسميين قد بدأوا في مزج الألوان الداكنة التي أرادوا أن يسودوا بها وجه رحلتنا، كنا نحن نجتاز سهل متيجة رفقة قرافييني قنصل أمريكا والذي عينه عبد القادر حديثا وكيلا عنه قائما بأعماله، وقد رفضت الحكومة الفرنسية الاعتراف بهذا التعيين وانتزعت عن السيد قرافييني الصفة السياسية، ولكن قرافييني حافظ على العلاقات التجارية مع الأمير، وهذا هو الذي دفعه إلى القيام بهذه الرحلة داخل البلاد، أما الأوروبيون الآخرون الذين شاركوا في القافلة فإن الفضول وحده هو الذي جعلهم يقومون بهذه الرحلة.

لم تكن مرحلتنا الأولى طويلة، فقد وصلنا إلى (حوش القايد) الواقع تقريبا وسط سهل متيجة في وطن الخشنة، ولم تكن الساعة قد جاوزت الواحدة بعد الظهر ولذلك رغبنا في أن نتقدم إلى أبعد من ذلك

خلال ما بقي من النهار. ولكن أدلاءنا لم يشاؤوا ذلك لأننا لو تقدمنا لكان علينا أن نقضي الليل عند الزواتنة القاطنين على ضفة وادي الزيتون. وقد أراد عبد القادر أن يفرض على هذه القبيلة الكبيرة دفع ثماني سنوات متخلفة من الضرائب وغرامة إضافية استثنائية من 200.000 فرنك، والمبلغ الأخير هو غرامة فرضها عليهم عقابا لهم على عرضهم المتكرر لخدماتهم للحكومة الفرنسية، ولما أطلعنا أدلاؤنا على هذه التفاصيل شاطرناهم الرأي، وظهر لنا أن الفرصة ليست عندئذ مؤاتية لطلب الضيافة عند الزواتنة باسم أمير يفرض عليهم دفع مبالغ كبيرة.

وهكذا قضت القافلة الليل في (حوش القايد) حيث رحب بنا رئيس قبيلة الخشنة أحسن ترحيب، وفي اليوم التالي اتجهنا نحو (سوق الخميس) الذي يسميه الأوروبيون (سوق الحميز) والترجمة الحرفية تجعله في

الواقع (سوق يوم الخميس) أي اليوم الخامس من أيام الأسبوع (عند المسلمين) [ب].

وهذا المكان يقع على الضفة اليمنى للحميز (وهو اسم الوادي الذي أعطاه اسمه) عند سفح (جبل عمال) في مضيق واسع، وله مظهر ترتاح له النفس كثيرا.

فهناك تأتي كل خميس قبائل الأطلس الصغير وعرب متيجة وحتى بعض الكولون الذين استقروا في السهل للبيع والشراء، ولهذا المكان (أي الحميز) اسم آخر أيضا، وهو (الفندق).

ثم تركنا السوق على جانبنا الأيمن، وبعد أن مشينا بعض الوقت في الروابي الواقعة في أسفل الأطلس الصغير وصلنا إلى مشاهدة (قارة مصطفى) وهو يعني "مصطفى الأكحل" بالتركية الذي أصبح منذ بعض الوقت معسكرا فرنسيا، وعندئذ لمحنا وادي قدارة، وهو واد يسمى عند جزئه الأسفل وعند مصبه (وادي

.

بودواو)، إنه هو الحد الفاصل الشرقي الذي عينته معاهدة التافنة للممتلكات الفرنسية في متيجة، حقيقة أن تعبير (إلى قدام) الذي ورد بعد اسم هذا الوادي جعل التحديد غامضا جدا، إنها عبارة تسمح لنا على الأقل بالتوسع كثيرا أبعد من ذلك[1] ، ولكن عبد القادر قد فصل في الموضوع بجباية الضرائب وتنصيب القياد أو الرؤساء على القبائل التي تقع شرقي وادي قدارة.

وعند نزولنا على وادي قدارة بدأنا نعثر على بقايا الطريق المعبد الذي مده عمر باشا[2]، وعلى مسافة أبعد من ذلك قليلا وجدنا هذا الطريق كأنه ما

---

[1] - كانت معاهدة التافنة موضوع دراسات عديدة، لاختلاف التفسير الذي أعطاه كل طرف لكلمة (إلى قدام) التي لا تعني فقط أبعد من وادي قدارة، ولكن تعني مصير إقليم قسنطينة كله. وحين عجز الفرنسيون عن اقناع الأمير بالحيلة (عن طريق المولود بن عراش/ المارشال فاليه) بالتخلي عن إقليم قسنطينة وتغيير موقفه كما في النص الأصلي للمعاهدة، لجأوا إلى خرقها وإعلان الحرب عليه (1839) وها هو أدريان بيربروجير ينبه قومه إلى الاستفادة من غموض عبارة (إلى قدام) كما بدت لهم . وفي مقدمة هذه الرحلة التي نترجمها دعا صراحة إلى استئناف الحرب ضد الأمير، بينما في الرحلة (وقد كتبها أثناء الهدنة) كان لا ينفك يغري قومه بالأمير ويدلهم على مخططاته.

[2] - عمر باشا (1815-1817) في عهده هوجمت الجزائر من أساطيل أمريكا ثم بريطانيا- سيما اكسموث 1816- وقد بدت علامات الضعف على الجزائر في عهده داخليا وخارجيا.

يزال على حاله، وهو يمتد إلى سهل يسر رغم أن ذلك لا يسر المسافرين، لأنه أحيانا كان حاد الصعود كثيرا، بل أنه يصبح أحيانا في شكل درجات متتالية، فيغدو وكأنه سلم حقيقي، وبذلك يصبح مشابها لأحد شوارع القصبة في الجزائر.

ووصلنا في ساعة مبكرة إلى مجاز قدارة، ورأينا هذا الوادي يخرج من خنقة ضيقة وعميقة المهوى على طول جبل عمال، وعلى يسارنا كان حوض الوادي قد اتسع فجأة وأصبح سهلا جميل المنظر وكثير الأشجار، وعلى اليمين هناك هضبة عالية مغطاة بأشجار البلوط الخضراء، وهذه الهضبة كانت تشرف على الممر الذي سنجتازه، وتظهر أشجار الزيتون البرية بعدد كبير ، ويلاحظ عليها الطول وقوة جذوعها، ولم نشاهد الزيتون المغروس إلا بعد ذلك بمسافة، وهو يعطينا فكرة عن أهمية الإنتاج التي يتحصل عليه أهل يسر والزواتنة وأهل تل عمّال،

وهي القبائل الثلاث التي تحتكر تموين مدينة الجزائر بالزيوت[1].

إن ممر وادي قدارة صعب للغاية، ولكنه لا يقف مانعا أمام الجيش الفرنسي، كما حاول الأدلاء إقناعنا بذلك، فقد ادعى لنا هؤلاء أنه إذا حاول النصارى ذات يوم أن يعبروا هذا الممر، فإنهم سيفنون عن آخرهم، والمعروف أن اجتياز مضيق الثنية، على طريق المدية فيه عقبات أكثر من هذا الطريق، ومع ذلك فإن جنودنا قد اجتازوه عدة مرات، رغم جهود الجبليين من أجل منعهم من ذلك.

ومع ذلك، ونظرا لضيق المضيق، فإن الطريق الذي يحاذي الوادي كان له الإشراف التام، من اليمين إلى اليسار، على مسافة طلقة بندقية فقط، وبما أن الوادي هو مجرى سيل وبين ضفتين حادتي الارتفاع

---

[1] - رحلة بيربروجير استطلاعية- تجسسية وتعليقه على أشجار الزيتون والممرات والقبائل القاطنة هنا وعلاقاتها ببعضها، والتجارة ومشاعر السكان نحو الأمير ونحو الفرنسيين والعادات، ووصف مراحل الطريق والجيش والأسلحة ونحو ذلك، كله داخل في مخطط الرحلة، وعلى القارئ أن يدرس عبارات بيربروجير بحذر وانتباه في ضوء ذلك.

بحيث يتراوح ارتفاعهما بين عشرة أقدام وأربعين قدما، فإن الاتصالات يمكن أن تكون مستحيلة بين فرق الجيش السائرة في الطريق والفرق الأخرى في أعالي القمم، ويضاف إلى هذه الصعوبة أنه يجب اجتياز وادي قدارة ثلاث مرات منذ دخول المضيق إلى الخروج منه، وهذه المضايق تتسم بالوحشية على مدى امتداده تقريبا، غير أننا نجد من حين لآخر اتساعا لمجرى الوادي فيعطينا قطعة أرض زراعية صغيرة كان القبائل يعملون عليها، وهناك أيضا المظهر غير المنتظر لحقول القمح أو الشعير محصورة بين وادي قدارة وضفافه الصخرية، وهذا المظهر يزيل عن هذه المنطقة الخشنة شيئا من قسوتها الطبيعية.

ووادي قدارة، رغم أنه يمر في مختنق ضيق فإن كمية المياه قليلة فيه أثناء اجتيازنا له، وكان عرضه لا يتجاوز في تقديرنا الثلاثين قدما، وهو يجري دائما على صخور كلسية ذات لونين أزرق ورمادي، بين حافتين

من نفس الطبيعة، وقد بدا لنا في الأمكنة التي يجري فيها، محصورا بين جدارين من اللون الأزرق مذكرا إيانا أكثر من مرة بالحوافي السحيقة لوادي الرمل (بقسنطينة) ولكن وادي قدارة يصبح في هذه الحالة كالقزم أمام العملاق، ومثل كل الوديان التي تنحدر من الجبال العالية والمتصببة، فإن هذا التجمع المائي يمثل سدودا ومساقط ليست في الواقع عظيمة، ولكنها تقدم للمسافرين مظاهر خلابة جدا، في انتظار أن تعطي للكولون المتسلحين بالآلات والمحركات لمصانعهم التي ربما يقيموها في المستقبل القريب على هذا الجزء من الأطلس[1] وأثناء مرورنا وجدنا الجبليين يشتغلون في كل مكان. بعضهم كان يقطع الأخشاب لبيعها في مدينة الجزائر، وبعضهم كان يصنع الفحم، بينما كان

---

[1] - تلك كانت فكرة كلوزيل سنة 1830، و 1835، وهو الذي جاء بيربروجير معه إلى الجزائر كاتبا له ومسؤولا على المكتبة والمتحف. ورغم عزل كلوزيل بعد هزيمته في حملة قسنطينة (1836)، فإن بيربروجير قد بقي في الجزائر إلى وفاته سنة 1869، وقد تحققت توقعاته عندما دخل الكولون مناطق الأطلس واستولوا على مزارع الزيتون والقمح والشعير وتسلحوا هناك بالآلات والمحركات والمصانع، واغتصبوا الأراضي الخصبة من السكان.

آخرون يدفعون المحاريث التي تجرها الثيران أو الأحصنة أو البغال، في قطع أرضية صغيرة صالحة للزراعة السهلة، وكان السكان الذين مررنا بهم قد أظهروا كثيرا من الاندهاش من مظهرنا، وكان بعض الرعاة يوجهون إلينا من أعالي الجبال عبارات الإهانة، ولا سيما عبارة "طحانين" التي لا تضرنا كثيرا ما دمنا جميعا عزابا.

وعندما خرجنا في الأخير من مضيق قدارة وعبرنا هذا الوادي لآخر مرة، لم نكن قد انتهينا بعد من دورتنا حول جبل عمّال الذي كنا نلمح قمته المحدّبة والشهباء على جانبنا الأيمن، ولكن لم يبق لنا، لكي نصل إلى هذه النتيجة وننحدر إلى سهل يسر الأعلى، سوى أن نعبر سلسلة من التموجات المتشكلة من القمم المنطلقة كالأشعة والتي ترتبط مع القمم المماثلة ثم تنحدر من القمم الأخرى المجاورة.

ولما وصلنا إلى القمم الأولى رأينا عدة مزارع جميلة وقرى مسكونة وكثيرة، فهذه مثلا (تالة خليفة) الواقعة على سفح مشجر من جبال عمّال والتي بدت لنا وكأنها معلقة فوق رؤوسنا. وهي قرية عظيمة نظرا لعدد المنازل التي تتألف منها، وكذلك نظرا لاتساع وجودة المزروعات التي حولها، ولا سيما أشجار التين والزيتون، وبمواصلة الصعود للتلال والقمم فإن المرء يقطع أيضا بعض الغدران الصغيرة التي تركها جبل عمّال تتسرب من سفوحه، ويوجد في أحد هذه التلال مورد جميل يدعى (عين السلطان)[1]، بناه أيضا عمر باشا.

وأخيرا وصلنا إلى آخر هذه القمم، وهي أعلى نقطة، وكانت المنطقة الواقعة وراء هذه السلسلة الأولى من الأطلس الصغير قد امتدت أمامنا في مختلف الاتجاهات وعلى مسافات بعيدة، ومن الجهة الشرقية

---

[1] - ومن فوائد هذه الرحلة أنها تذكر بعض الأماكن التي ربما لم تعد الآن مستعملة بكثرة، مثل قارة مصطفى، وتالة خليفة، وحوش القايد، وعين السلطان، وكذلك بعض أسماء القبائل والأعراش.

الأمامية. هناك سهل يسر الأعلى الصاعد في التواءات باتجاه جرجرة، وهي التواءات مغطاة بالثلج حاجبة للمنظور. أما عن الجهة اليسرى فهناك مخنق ضيق وعميق يسمح لمياه وادي يسر أن ترفد مياه وادي الزيتون. وهذا المضيق يشكل فاصلا طبيعيا بين المجرى الأعلى لوادي يسر ومجراه الأدنى.

وأثناء انحدارنا إلى سهل يسر وجدنا مجموعة من أشجار الزيتون الجميلة في شكل باقة، ووسط هذه الأشجار توجد مجموعة من الأكواخ (القرابي) القبائلية متقنة البناء. وهذا المكان يطلق عليه اسم (سوق الجمعة إمتاع عمّال)، وعبارة (إمتاع عمّال)، هي التي تميزه عن (سوق الجمعة) الآخر الذي ينعقد في البليدة كل يوم جمعة.

وفي أسفل المنخفض قطعنا وادي الزيتون قبيل انصبابه في وادي يسر، ثم مشينا نحو الوادي الأخير (يسر) فقطعناه أيضا تاركين على يميننا مسافة ربع

فرسخ، الجسر الذي بناه عمر باشا هناك والذي انتهى تعبيده الذي تحدثنا عنه سابقا، عند هذا الجسر.

* * *

وبلاد الزواتنة التي تقع عندئذ على يميننا بلاد عظيمة وتستحق هنا شيئا من الاستطراد: إن هذه البلاد، كما بدت لنا، تقع بين سلسلتين متقابلتين من الجبال ويجري بينهما وادي الزيتون الذي سميت هذه البلاد باسمه لكثرة أشجار الزيتون المرعية من حوله[ج]، وجمال المزروعات التي لاحظناها في هذا المكان ربما لا نظير لها في الإيالة (الجزائر) كلها، وهي مفخرة لأي بلد يدعي التمدن.

والسلسلة الجبلية التي تحف بالضفة اليمنى لوادي الزيتون هي الأكثر ضخامة، وقد سهلت تشكيلتها الجيولوجية عمل الإنسان، وكل هذا الجبل المزروع من أدناه إلى أعلاه، مقسم إلى ثلاث مناطق بحاجزين يحافظان على الأراضي الزراعية ويلغيان آثار الانجراف،

إنها في ثلاث روابي تعلو أحداها الأخرى، بينما الطبيعة هنا أبدعت شكلا متدرجا يصارع بواسطته المزارعون الجبليون بطريقة اصطناعية الآثار السيئة للانحدار.

إن أشجار العنب والتين والزيتون تزدهر هنا وسط مزروعات الحبوب . والعين ترتاح لهذا المنظر المشتجر، كما ترتاح للنخيلات القزمة التي نلمحها وسط الحقول العربية والتي يمرر البدوي الكسول حولها محراثه لكي لا يتعب نفسه بانتزاعها.

وإذا كانت النظرة الأولى للعين تعطي انطباعا جيدا عن المزروعات وتنبيء عن سكان عَمَلَة ونشطين فإن مظهر القرى يزيد في تأكيد هذا الانطباع الأول، فهناك أكواخ بأعداد كبيرة، وبناؤها أفضل هنا من أي مكان آخر، وغالبا ما ظهرت سقوفها مبنيّة بالآجر بدل التبن الذي يستعمل في الأمكنة الأخرى عموما، وبعض البيوت مطلية بالجير، وهناك مسجد، وكل ذلك يشكل

منظرا يسر العين ويثير الاندهاش لا سيما إذا قارنا ذلك بالدواوير البائسة الواقعة في متيجة.

وقبيلة وادي الزيتون كانت عندئذ كثيرة العدد، وهي مؤلفة من كراغلة وقبائل، وكانت دائما تظهر استعدادها للتعامل مع الفرنسيين، وغالبا ما اقترحت علينا نفس الخدمة التي كانت تقوم بها قبائل المخزن[د] للأتراك سابقا، وذلك مقابل أجرة متواضعة لكل رجل مسلح.

لقد كان إعجابنا بهذه البلاد وبسكانها العاملين والأغنياء شديدا عند زيارتنا لها يوم 29 ديسمبر 1837. وبعد أيام قليلة نهب عبد القادر قراهم وشتت شملهم. لقد فهم الأمير جيدا أنهم هم الأعراش الذين كان سلفهم مستعدين للتحالف معنا رغم أننا لم نستفد إلى الآن من هذا الاستعداد[1] إن الأمير يخشى من نيتنا في الاستيلاء على الزواتنة ذات يوم، ولذلك سبق هو

---

[1] - يحاول بيربروجير أن يغري قومه بقبول عرض الزواتنة في التعامل معهم ضد الأمير.

الأحداث، لقد حطم الزواتنة لنفس السبب الذي جعله ينفي الكراغلة من تلمسان إلى تاكدامت. فالويل للذين خدمونا أو يمكنهم خدمتنا ذات يوم! إن الأمير قد ظهر صارما بالنسبة للماضي، وهو شديد الوعيد أيضا بالنسبة للمستقبل.

والزواتنة الذين لم يرغبوا في الخضوع لقانون هذا القائد (الأمير) جاؤوا إلينا طالبين اللجوء في متيجة. وقد استقبلوا استقبالا حسنا على قدر الإمكان. وهم الآن قاطنون في (خوجة بيري) بالقرب من سوق الخميس.

لقد كان يعز علينا أن تفارق عيوننا هذه البلدة الجميلة المسماة وادي الزيتون.

مشينا حتى الرابعة مساء في سهل يسّر، ولم نتوقف إلا عند بني هني، الذين يقطنون الضفة اليمنى للوادي. وطلب أدلاؤنا من هؤلاء السكان المختلطين عربا وقبائل، الضيافة لوكيل السلطان (الأمير)، فرفض

هؤلاء في أول الأمر معتذرين بالفقر، وترجونا أن نواصل سيرنا قائلين لنا إن هناك قبيلة غنية جدا ستضيفكم على أحسن ما يرام، ولكن فرسان عبد القادر الذين هم على دراية بهذه الحيل العربية أصرا بشيء من الرضى والضغط، فتركونا نقيم عندهم في كوخ (قوربي) معزول مخصص لاستقبال الأجانب، كما هو الشأن في كل القرى القبائلية.

ومن العدل أن نقول إنه باستثناء هذا الاستقبال، ليس لنا سوى أن نشكر مضيفينا على ما حصل بعد ذلك. فقد وضعوا القرط (التبن) والشعير والدجاج والحليب والزبدة تحت تصرفنا، ورفضوا الدراهم التي عرضناها في المقابل.

إن الفتور الذي أظهروه لنا عند الاستقبال كان يزعجنا ربما لولا حادث وقع تقريبا في نفس اللحظة قد غير من رأينا، ذلك أن يهوديا من الجزائر، هو أخ لأحد الأعيان الديبلوماسيين للإيالة، قد انضم إلى قافلتنا. لقد

كان متوجها إلى عبد القادر من اجل مبلغ مالي يقدر بـــ 300.000 فرنك، كان الأمير قد أودعه في داره، وقد رغب الأمير الآن في استعادة ذلك المال، لأنه وجد مكانا يودعه فيه أكثر فائدة من الأول[1] وفي اللحظة التي دخلنا فيها عند بني هني وجدنا الإسرائيلي الأمين يطلب من شيخ الدوار، بلهجة آمرة: "البيض والزبدة له والتبن والشعير لمطيته". وقد ظل الشيخ ساكنا لا يتحرك وصامتا كأنه لم يسمع شيئا، فكرر اليهودي الطلب بلهجة فيها غضب حاد، فنهره الشيخ باحتقار قائلا:"ومن أنت حتى تأتي وتصدر الأوامر هنا؟" فأجاب اليهودي بلهجة فيها انكسار:"أنا يهودي السلطان". فرد عليه الشيخ:"يهودي السلطان أو يهودي الشيطان، ما أنت إلا كلب حقير ليس له كلمة

---

[1] - لم يفصح الكاتب عن السبب الذي جعل الأمير يضع النقود عند هذا اليهودي، والذي سيرد اسمه على أنه (ابن دوران) ، ونعتقد أن ذلك حدث بعد توقيع معاهدة التافنة (مايو 1837) وإن نقودا كانت موضوعة لحساب الأمير لشراء بعض المعدات والأسلحة. وقد اعتمد الأمير (وقبله الدايات والبايات) على العناصر اليهودية في المعاملات المالية والديبلوماسية والترجمة، قبل أن يعلن اليهود ولاءهم للفرنسيين ضد الجزائريين، أما محمد بن الأمير في كتابه (تحفة الزائر) فقد ذكر أن الأمير عين (ابن دوران) للتجسس له.

أمام مسلم". وكانت ملامح الشيخ عند كلامه السابق شديدة التعبير لدرجة أن الرجل الإسرائيلي أحس بدنوّ جرّة اليطقان، فتوقف عن مواصلة الحديث مع هذا المحادث الصلب.

وربما لا يناسب المسيحي أن يتعزّى بسوء حظ الآخرين، ولكن ذلك هو ما حصل في هذه المناسبة. فقد كنا غير مشفقين أن نمزح من الاندهاش الممزوج بالرعب الذي كان اليهودي غير قادر على إخفائه. وذهبنا نحن شبه مبسوطين لننام في المكان الذي أعطى لنا عن كرم، وهو بكل بساطة ورشة لتزييف النقود يتخذه الصناع القبائل للتدريب على تزوير قطع الخمس فرنكات الفرنسية، كما كانوا يفعلون في السابق مع عملة (البوجو) وغيرها من النقود التي كانت شائعة في الإيالة. وعلينا أن نعترف بأنهم أناس حذقون وناجحون في هذه المهنة التي لا يعتبرونها أبدا جريمة، ومن خلال الاستقبال الذي لقيه اليهودي المذكور، لا يبدو لنا أن

سلطة الأمير قائمة ومتمكنة في هذا الجزء من الإقليم الذي اعترفت له به (معاهدة التافنة). والحديث الذي دار بيننا خلال الليل مع شيخ يبدو في بلاد متمدنة على أنه تعبير عن رأي فردي، ولكن عند هذه الشعوب لا توجد أفكار فردية، فرأي رجل واحد حول الشؤون العامة يعتبر هو رأي الجميع تقريبا، وما عدا ذلك، فإننا سمعنا نفس القول عن الأمور نفسها في أماكن أخرى ومن قبل أشخاص آخرين[1] .

لقد سألنا الشيخ: كيف لا يظهر قومه إلا قليلا من الاحترام لعبد القادر ما داموا تحت ولائه. فاستنكر هذا الادعاء بشدة قائلا لنا: إن رئيس القبائل في هذا الجزء من الايالة، وهو ابن زعموم[2]، قد اعترف فعلا

---

1 - ما يزال الجزائريون إلى اليوم يحدثون الأجانب "بكل صراحة" دون معرفة أهوائهم ونواياهم، والرأي الفردي قائم على مبدأ الحرية الفردية الذي يؤمن به الجزائري من جهة، وعلى العقيدة الإسلامية التي تجعل كل مؤمن مسؤولا وحده أمام الله، ولكن الأوروبيين لهم مقاييسهم الفردية والجماعية، فقد يعلن المواطن عندهم رأيه الذي هو ليس بالضرورة رأي الحكومة أو رأي الجماعة.

2 - الحاج محمد زعمون (زعموم)، هو شيخ تزعم المقاومة ضد الفرنسيين في سهل متيجة منذ الشهور الأولى للاحتلال، أنظر عنه كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر) وكذلك الجزء الأول من (الحركة الوطنية). وكان الحاج سيدي السعدي الآتي ذكره من المحرضين على الجهاد معه.

بسلطة الأمير، ولكن القبائل الواقعة تحت سلطته لم تستسلم إليه (الأمير)، وإذا كانوا لم يعلنوا معارضتهم لإدارة زعيمهم، فذلك لأنهم لا يعلقون عليها أهمية كبيرة، وهي ستكون عندهم سلطة اسمية فقط، ولا تمس استقلالهم في شيء ولا تطلب منهم سوى بعض التضحيات المادية قليلة الأهمية، ثم قال الشيخ: لقد كنا ندفع للأتراك موزونة واحدة (حوالي ست ليار LIARDS) على كل بيت، ولا يطلب منا أكثر من ذلك للسلطة الجديدة، ولكن إذا اشترط الحاج عبد القادر (وهم يستعملون لقب الحاج ولا يطلقون عليه اسم السلطان)[1]، أكثر من ذلك ، فما عليه إلا أن يأتي يطلبنا في جبالنا وسندفعها إليه رصاصا.

---

1 - رغم أن الأمير لقب (بأمير المؤمنين) منذ البيعة في معسكر سنة 1832، فإن لقب الأمير أو السلطان لم يكن شائعا عند الموالين له في غرب البلاد ووسطها وشرقها، بل كانوا يفضلون استعمال لقب (الحاج) لأنه ذو معنى روحي أعمق في نفوسهم. اما لقب السلطان فهو زمني، وكذلك (الأمير) إذا جرد من كلمة (المؤمنين)، غير أن الأجانب هم الذين كانوا يستعملون السلطان والأمير حتى شاعا بين الجزائريين أيضا.

إن الملاحظات التي استخلصناها تدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه النظرة إلى سلطة الأمير نظرة مشتركة بين كل القبائل القاطنة في جبال هذا الجزء من يسرّ الأعلى.

والليلة الأولى في محطة سفرية (بوفاك) تكون دائما متعبة. ولكن تلك الليلة التي قضيناها عند هؤلاء القبائل كانت أكثر من ذلك لأن أسرابا من الحشرات جعلتنا ندفع ثمنا غاليا في ضيافة الكوخ (القوربي) وقد كان علينا أن نتخلى عن النوم ونقضي الوقت في الاستماع إلى أحاديث مضيفينا. فقد أوقد هؤلاء نارا عظيمة وظلوا ساهرين علينا لأن جيرانهم وأعداءهم أولاد خلفون يمكنهم، حسب قولهم : أن يأتوا ويقتلوا النصارى وينهبوهم لكي يخرجوا بني هني عند الأمير، لأنهم سيتهمون بأنهم أساؤوا معاملة أناس كانوا مسافرين تحت حمايته.

وفي الثلاثين من شهر ديسمبر 1837 غادرنا قرية بني هني وواصلنا السير في سهل يسرّ، وكل المنطقة التي قطعناها خلال هذا النهار كانت آهلة بالسكان وكلها مزروعة. وفي كل مكان مررنا به وجدنا القبائل منشغلين بخدمة الأرض، وكان مالك الحقل متميزا بهندامه المعتني به وهو موجود بالقرب من عمال أرضه، وبيده عصا طويلة، وفي المكان الذي يضيق فيه السهل كثيرا وحيث يعم مجرى الوادي كل المساحة تقريبا، وجه الأهالي إلينا الشتائم من أعالي الجبل، وكان بعضهم وهم مسلحون بالبنادق، يترلون من الجبل، إلى أن يصبحوا بالقرب منا، ولكن رؤيتهم لمرافقينا كانت تمنعهم من التعبير عن مشاعرهم المعادية بأكثر من الكلام، وقد شرح لنا الأدلاء بأن الأهالي الذين كنا نجتاز أراضيهم هم الذين كانوا قد عانوا أكثر من غيرهم من معركة بودواو وأنه يسرهم أن يأخذوا بثأرهم من فرنسيين يجرؤون على السفر عبر أراضيهم.

وفي قرية (فليسة الجبل) حيث توقفنا حوالي ساعة تحدث إلينا السكان في هذا المعنى، ولم يخفوا عنا أنه لولا حماية فرسان الأمير لقتلونا عن آخرنا، وهي عملية قالوا إن عجائزهم تكفي للقيام بها. ورغم هذا الكلام غير المأمون العواقب فإنهم قد حملوا إلينا الماء والحليب ولم يترددوا في تقديم بعض الخدمات لنا دون أن نطلبها منهم. ولاحظنا بصفة عامة أن الأفراد الذين أساءوا استقبالنا أول مرة انتهوا دائما بمعاملتنا معاملة إنسانية.

وفي المكان الذي يصب فيه وادي الجمعة (هـ) في يسرّ، وقبل القرية الكبيرة المسماة (بني هارون) غادرنا سهل يسر، وقطعنا الجبال التي تقع على الجانب الأيسر من هذا الوادي واتجهنا نحو الجنوب، وعندما وصلنا إلى سهل ضيق قطعنا قمة أخرى توازي تلك التي تفصل هذا السهل عن حوض يسر، ثم أخذنا في النزول بسهل حمزة حيث ظننا أننا سنجد معسكر الأمير.

وقد رأينا في هذا السهل حوالي 1500 من (قبيلة) عريب ساكنين الخيام، وهي موزعة على أربعة دواوير موجودة على ضفاف الوادي الأكحل، وهو الوادي الذي يفصل إقليم الجزائر عن إقليم قسنطينة.

وهناك علمنا أن عبد القادر قد رجع إلى "حمزة" ليحتفل بالعيد الكبير (الأضحى) بعد أن قام بحملة في البيبان (وهي الممر الشهير الواقع على طريق قسنطينة)، وبعد أن أخضع القبائل الساكنة في المساحة الواقعة بين "ونوغة" و "الوادي الأكحل" و"البيبان". وأثناء هذه الاحتفالات الدينية علم الأمير أن القبائل المشار إليها قد قتلوا الشاوش الذي أرسله إليهم لجباية الضرائب. ويبدو أن هذا الشاوش قد تجاوز الحد في جمع المال لحسابه مما تسبب في التمرد، ومهما كان الأمر فإن الأمير قد رجع فورا إلى الثائرين، وأثناء انشغاله بمعاقبتهم وصلنا نحن إلى "حمزة".

* * *

ورأينا أن استقبالنا على العموم كان استقبالا فاترا في كل مكان حللنا به، ونحن نفهم جيدا العداوة الدينية والسياسية التي لدى مضيفنا، ولذلك لا نستغرب من هذه الحقيقة، وهكذا فإننا عندما وصلنا إلى قبيلة عريب بـــ "حمزة" وبدت لنا ملامح الغضب الذي يكنّونه لنا لم نفاجأ بالأمر، ولكن حادثا خطيرا كان ينتظرنا في هذه القبيلة وكان سيتطور إلى ما هو أخطر لو لم يتوقف فورا تقريبا. وقبل أن نبدأ في سرد القصة قد يكون من المفيد أن نتحدث عن الأشخاص الذين شاركوا فيها بالقسط الكبير، لقد سبق القول بأننا كنا مرفوقين بحرس عددهم أربعة فرسان من جيش الأمير عبد القادر، ومن بين هؤلاء اثنان فقط يستحقان التعريف بهما، الأول هو سي الملياني، وهو رجل من حجوط[1] عمره حوالي أربعة وخمسين سنة، صاحب

[1] - قبيلة حجوط الساكنة في سهل متيجة ظلت دائما عدوة للفرنسيين وقاومتهم مقاومة عنيدة وانضمت لدولة الأمير وأيدت خلفاءه البركاني وابن علال في المدية ومليانة، وكانت مقاومة حجوط مضرب المثل وقد انتقم منها الفرنسيون بقسوة.

ملامح معبرة جدا، وله لحية سوداء وكثيفة، وله عينان بلون لا يمكن تحديده ولهما تعبير حاد، وهما مختبئتان تحت حاجبين كثيفين، وإذا ظهر شعور قديم لحجوطي فإنهما يجحظان من عرينهما لكي يرميا بالشرر والدم. وفي اللحظات النادرة التي يكون فيها سي الملياني في حالة انشراح يكون مظهره أيضا يوحي بالشؤم، ومن مداعباته المفضلة أن يمرر يده اليمنى أفقيا بين الجزء الأعلى من برنسه ورقبته ، ثم بطريقة تشبه تمرير اليطقان (السيف) عند قطعه الرأس عن البدن.

أما الفارس الآخر فقد كان من قبيلة بني عامر، واسمه مصطفى، وكان هذا الرجل قد كلفه الداي سنة 1816 بمرافقة الأسرى الأسبانيين الذين كانوا في سجون الجزائر، إلى بلادهم بعد حملة اللورد أكسموث، وقد أقام مصطفى في شبه الجزيرة الايبيرية سبع سنوات، وحذق لغة البلاد. ومنذ الاحتلال سنة 1830 قضى مصطفى خمس سنوات في صفوف

الصبايحية (الفرسان) التابعين لنا ثم هاهو أخيرا قرر خدمة عبد القادر ما دام نجمه قد ظهر له آخذا في الطلوع أكثر من نجمنا. ومثل كل البرابرة الذين اتصلوا بالحضارة، أخذ مصطفى منها ما هو رديء وترك ما هو جيد وقد وصف الملياني هذه الظاهرة بطريقته فقال: إن مصطفى لم يبق مسلما ثم إنه ليس نصرانيا أيضا، وكان هذان الرجلان يتباغضان وديا فشبه المتمدن (مصطفى) ينظر إلى رفيقه الملياني على أنه متوحش كبير وجاهل، أما المؤمن الحقيقي (الملياني) فكان بدوره يحتقر زميله ويعامله كعربي منحل ومرتد[1].

وبينما كان الرجلان اللذان تحدثنا عنهما جالسين تحت الخيمة ويتلذذان بالدخان المحلي، كان صاحب هذه الرحلة وأوروبي آخر يتجولان في الدوار فأحاط بنا عدد كبير من العرب وأخذوا يتفحصوننا

---

1 - سيختم بيربروجير رحلته بحادثة وقعت بين الرجلين (الملياني ومصطفى) وظل يكرر سوء تفاهمهما خلال الرحلة، كما كان يكرر سوء تفاهم القبائل، ثم علاقة هؤلاء بالأمير، وكانت هذه السيرة هي التي درج عليها أغلب الفرنسيين أثناء الاحتلال، وهي البحث عن مصادر سوء التفاهم بين الجزائريين وتوظيفها لصالحهم بزرع العداوة والبغضاء وتفريق "الصفوف".

عن قرب متعب جدا، ومع ذلك فقد تسامحنا مع الإزعاج الصادر عن أناس لم يروا في حياتهم ربما وجه نصراني أبدا، ألا يشاهد المرء في باريس، وهي مركز المدنية، جمهور الناس يتجمعون يوميا حول برنوس عربي أو جبدولي حضري. وكلاهما إذا جاز الاستطراد، لا يغطي سوى عربي ولد في إحدى ضواحينا؟ ألم نشاهد سنة 1814 كل متنزهي حديقة (التويلري) يركضون وراء سيقان ثلاث سيدات إنجليزيات قادهن سوء الطالع إلى أن يكن من الأوائل اللائى ظهرن بملابس بلادهن؟ إننا لا يمكننا أن نطلب في قرارة نفوسنا من عريب منطقة حمزة، وهم أناس برابرة في الأساس، آداب لياقة أكثر مما نطلبه من السكان المتنورين والمتأدبين في عاصمة فرنسا؟ وإذن فلنكن صبورين وبدون شكوى[1].

[1] - المقارنات بين التمدن والبربرية، بين عريب وسكان باريس، والتويلري ومنطقة حمزة.... كلها مقارنات تدل على العنصرية عند بيربروجير ولكن في شكل يجعل الفرنسيين دائما على رأس المدنية وكذلك عاصمتهم. وسنرى أن بيربروجير يصف حتى الكلاب بالجزائر بأنها ما تزال "في طور التوحش" فما بالك بالإنسان الجزائري.

ولكن الجماهير التي تزاحمت علينا في البداية للنظر إلينا في صمت لم تلبث أن رمتنا بالأوصاف الجارحة. وقد ذهبت الوقاحة ببعضهم إلى حد البصق في الأرض وهم ينظرون إلينا، وهو ما يعتبر عندهم قمة الإهانة، وإن احتمال هذه الإهانة يؤدي إلى إهانات أعظم منها. وأغلب الناس يزدادون هيجانا من الإساءات الصادرة عنهم. ومن كان في استطاعته أن يتنبأ بأول تجاوز يمكن أن يحدث؟

ولما رأينا تطور الأمور إلى هذا الحد ذهبنا نبحث عن مصطفى وأعلمناه بما حدث، وطلبنا منه أن يخبر هؤلاء القوم بأننا مسافرون تحت حماية الأمير وأن الإهانات التي واجهونا بها هي موجهة في الواقع لمن يسمونه سلطانهم، فأخذ مصطفى عصا وأظهر غضبا شديدا، وبدأ يشتم الناس الذين كانوا يتبعوننا والذين احتشدوا عند مدخل الخيمة، ولكن قهقهات الضحك الصادرة عن مصطفى والتي لم يحاول إخفاءها، كشفت

لنا أنه لم يكن سوى ممثل كوميدي. ومما أكد قناعتنا هو ان مصطفى كان في كل مرة يرفع فيها العصا ليضرب شخصا، بطريقة تبدو كأنه سيضربه بقوة، كان يتوقف بالعصا في كل مرة يهمّ فيها بضرب الشخص المعني، وهكذا فإن الذين شتمونا قد ازدادوا وقاحة نتيجة سلوك هذا الرجل معهم ودعمه لهم، ولما اشتد غضبنا من تصرف مصطفى احتججنا عليه بشدة وهددناه بأننا سنخطر الأمير بذلك فور وصولنا إلى المعسكر. وأمام هذا المشهد أظهر الملياني هدوءا جعلنا نعتقد أنه بقي غير مبال. ولكنه باعتباره العدو اللّدود للفارس مصطفى والذي شكونا منه والذي نعته بالمرتد، فإنه أبى أن يترك هذه الفرصة السانحة دون أن يهينه. فقال بصوت حاد النبرة: "إن الحق مع النصارى، إن السلطان بعثنا لنحميهم، ومن واجبنا ألا نجعلهم يتعرضون إلى أية إهانة" ثم استدار نحونا وقال: "من هم الأشخاص الذين أهانوكم؟ أروني إياهم، وسأضرب

كل واحد منهم خمسين ضربّة بالعصا فورا". وبطبيعة الحال لم نعينهم له، وقلنا للملياني: "لقد نسينا الماضي، ويكفينا أن يعرف عريب حمزة أننا في حماية الأمير، وأن عليهم أن يحترمونا".

ومنذ هذه اللحظة ليس لنا سوى أن نشكر مضيفينا، فقد ضاعفوا لنا التقدير والاحترام، وحاولوا بكل الوسائل أن ينسونا الاستقبال الأول، وقال لنا أحدهم حول الموضوع: "إنكم وصلتم في وقت غير مناسب، فالحاج عبد القادر جعلنا ندفع15.000 بوجة وأخذ منا مائتي بغل محمّلة بالشعير، فلا يمكن بعد ذلك أن نكون راضين". وقد فهمنا جيدا دوافعهم، وسامحناهم من كل قلوبنا، ثم استأنفنا جولاتنا في الدوار.

والتتره في دوار أو مخيم عربي ليس دائما بدون إزعاج. فكل خيمة يدافع عنها حوالي ثلاثين كلبا وأحيانا أكثر من ذلك، وهذه الكلاب تظهر هيجانا

شديدا ليس فقط ضد الغريب ولكن أيضا ضد كل إنسان من القبيلة يتعدى الحمى الذي يفصل بين مسكن وآخر، وهذا الحمى ليس أكثر واقعية من خط الاستواء، ومع ذلك فإن الكلب البدوي يعرفه جيدا، وهو لا يبدأ النباح إلا عندما يبدأ المرء في اجتياز هذا الحد الوهمي، ولكي تتجول في أمن وسط هذا السرب من الحراس الشرسين يجب عليك أن تحمل دائما زادا من الحجارة، ذلك أن العصا لا تجدي نفعا أمام شراسة الكلاب.

وعندما يستقبل رب الخيمة زائرا تبدو الكلاب وقد فهمت أن عليها احترام الضيف. فإذا ظهر عليها النسيان، فإن النساء يسارعن إلى معاقبتها بضربات العصى. وأثناء عملية استتباب الأمور فإن لهؤلاء النسوة عذرا بريئا في النظر إلى الزائر الجديد، كما يحلو لهن.

وما دمنا قد أطلنا في هذا الموضوع فلنذكر أيضا أن الكلاب في الجزائر لا تتبع الإنسان أبدا فهي تشبه

القطط في بلادنا. إنها مرتبطة بالمكان وليس بالإنسان، ويمكننا القول إن هذه الحيوانات ما تزال في طور التوحش. ولعل ذلك هو السبب في الكره العميق الذي يكنّه أسيادها لها، ذلك أن كلمة "كلب" تعبر عن الإهانة الأكثر قوة، ومن الملاحظ أن تعبير "كلب" له عندنا أيضا معنى غير محترم ولا يتلاءم مع الكفاءات الثمينة المعترف بها لهذا الحيوان المسمى بحق "صديق الإنسان". ومن يدري ما إذا كان أصل هذه الشتيمة لا يرجع إلى العهد الذي كان فيه أجدادنا، وهم ما يزالون برابرة أي في نفس الحالة تقريبا التي عليها العرب في العلاقة مع المسكن ونمط العيش، يستعملون نفس الحكم المسبق ضد الكلاب؟وأثناء جولتنا حول الدوار لمحنا "برج حمزة" باتجاه جبل جرجرة، ورغبنا كثيرا في زيارة هذا البرج لفحص أطلاله الرومانية التي قيل إنه بني في وسطها، ولكننا كنا دائما نواجه باعتذار لتحويل

اهتمامنا عنه، لقد كانوا يخافون بدون شك أننا سنرسم خطته(و).

وفي عهد الأتراك كان هذا الموقع "برج حمزة" محروسا بحوالي أ ربعين جنديا. وقد أكد لنا أهل عريب أن نية الأمير هي أن يترك في هذا البرج محلة (حامية) من 300 رجل عندما يغادر المنطقة. وكان من الصعب علينا تقدير الشكل الدقيق للبرج من المسافة التي كنا نفحصه منها. لقد ظهر لنا أنه ذو شكل مستطيل مدعم بمعاقل حصينة (Bastions) ولا يبدو أنه أكبر من برج الأربع والعشرين ساعة (برج مولاي حسن بالعاصمة)، إن النية التي نسبوها إلى عبد القادر في احتلال "برج حمزة" هي نية محتملة جدا، لأن هذا الموقع هام نظرا لقربه من حدود الأقاليم الثلاثة وهي الجزائر والتيطري وقسنطينة. ومن هذا المكان يمكن تهديد قبائل يسّر أيضا وقبائل جرجرة بالخصوص، وعددها أربع عشرة قبيلة، وكل قبيلة تقدر بألفي ساكن، وهي تؤلف مجموعة

مرهوبة الجانب من السكان الراغبين والقادرين على الاستقلال الذي يمكنهم البقاء عليه. وكان الأمير يشعر بتلك الرغبة منهم. ولذلك احترس من الذهاب إليهم[1] ولكن قلقهم لا يغضبه عندما رفع رايته قبالة جبالهم، ومن "برج حمزة" يمكن القيام بعمليات في اتجاه بجاية أيضا وذلك بأخذ القبائل التي تحيط بهذه المدينة من الخلف ولا يقتضي ذلك سوى اتباع امتداد سهل حمزة الذي يتوغل بين جرجرة والجبال التي تحد الجانب الجنوبي من وادي الصومام أو بو مسعود الذي يمتزج به ذلك الامتداد.

وعند رجوعنا من جولتنا وجدنا وجبة جيدة. إن أصدقاءنا عريب، قد تجاوزوا المنتظر منهم ليمحوا من ذاكرتنا الشكوى التي كانت لنا ضدهم. وبعد

[1] - ظهر أن هذه الاحتمالات غير صحيحة، فقد زار الأمير سكان جرجرة مرتين آخرهما سنة 1846. وقد دعموه في جولاته الأخيرة ضد الفرنسيين. ومنذ 1842 أخذ هؤلاء يناوشون منطقة جرجرة (زواوة) ، ولكنهم لم يحتلوها إلا سنة 1857، وبعد مقاومة عنيدة على يد الشريف بوبغلة أولا والسيدة فاطمة ثانيا، وكذلك زعماء الطريقة الرحمانية أمثال الحاج عمر الذي كان على رأس الزاوية الأم (آيت اسماعيل). وقد هدم الفرنسيون الزاوية ونفوا شيخها سنة 1857.

تناول الوجبة استقر كل منا على أحسن حال في الخيمة حيث كان علينا أن نقضي الليلة (وهي ليلة من ليالي شهر ديسمبر في الهواء الطلق تقريبا ذلك أن الخيمة العربية، وهي مفتوحة من الأمام ومن الخلف لا تمنع من تسرب الرياح كثيرا.

إن بيت الشعر أو القيطون أو الكوخ (القوربي) هي أنماط المسكن الوحيدة التي يتمنى المسافر في الجزائر أن يعثر عليها حين يبتعد قليلا عن المدن، والقوربي عبارة عن كوخ، وهو موجود تقريبا لدى كل قبيلة في منطقة القبائل، ولا يوجد سوى القليل من الأفراد من هذه السلالة يقطنون الخيام، وقد قلنا سابقا إن من عادة أهل الجبال أن يكون لهم في كل قرية كوخ معزول حيث يترل المسافرون والغرباء، وإن الحالة السيئة التي وجدنا عليها بعض هذه المحطات السفرية لا تعطي فكرة محترمة عن الضيافة التي يقدمها المالكون لها.وفي قبيلة بني معاند (Mâand) مثلا قدموا لنا كوخا

(قوربيا)، أو بعبارة أخرى قدموا لنا هيكل كوخ لا يمنع سوى القليل من الهواء الخارجي، لدرجة أننا فضلنا قضاء الليلة كلها تقريبا في الهواء الطلق بالقرب من مواقد النار، ذلك أن الحيوانات قد أكلت التبن الذي يشكل سقف هذا الكوخ، ثم انتزع المسافرون بالتوالي الأعمدة التي كانت تؤلف الهيكل لكي يوقدوا بها النار في محطاتهم السفرية، وهناك كتلة من الأشواك الجافة ما تزال تحيط بهذا المسكن الهزيل وهي لا تحميه إلا قليلا من الرياح الجليدية القادمة من الجبال والتي كانت تتسرب من خلال الأشواك لكي تصل حتى إلى النائمين، كما لو كانت الأشواك غربالا.

ولا يوجد عند أهل عريب حمزة الذين هم من العرب، سوى الخيام أو (القيطونات) وهذه الخيام مصنوعة من شعر الماعز، وهي تسمى أيضا بيت الشعر. والقماش (الفليج) لا يلامس الأرض إلا من أطرافه على جانبي الطول. أما من الجهة الأمامية والخلفية فهناك

مساحة كبيرة بين الأرض وقماش الخيمة. وهم يسدّون هذه المساحة أحيانا بحائط قصير من المدر الجاف على قدر الاتكاء، وينقطع هذا الحائط عند مدخل الخيمة، وشكل هذا القيطون عبارة عن سفينة مقلوبة بحيث يكون ظهرها في الهواء، والتوزيع الداخلي للخيمة يكاد يكون واحدا.

فالخيمة دائما مقسمة إلى قسمين متساويين بقاسم (حاجز) يتألف من عدة أعمدة توضع بينها المؤونة المخزونة في جلود الحيوانات، وبعض الأمتعة، وأسلحة ربّ الخيمة، والجزء الواقع على يمين الداخل مخصص للرجال، وهو يتألف من قطعتين، الأولى هي التي تلامس القاسم وتغطي أرضها بزربية أو حصير حسب ثروة المالك، وهي في نفس الوقت تؤدي وظيفة قاعة الجلوس وغرفة النوم للرجال أيضا. وعلى يمين هذا الجزء وفي الطرف الأخير من الخيمة هناك مكان منخفض وضيق توضع فيه عادة الحيوانات حديثة الميلاد

على الأرض مباشرة. وهم عادة يربطونها في أوتاد صغيرة مخافة أن تنفلت خلال الليل إلى القاعة وتتجول فوق الرجال النائمين هناك في العادة، أما على يسار القاسم فيوجد المكان المخصص للحريم، وهو أيضا ينقسم إلى جزأين، قاعة النساء وهي في نفس الوقت غرفة لنومهن ومطبخ واقع في آخر الخيمة. وعند مدخل الخيمة تعلق الشكوى المليئة باللبن أو القربة المليئة بالماء.

والخيمة التي نمنا فيها في "حمزة" هي خيمة شيخ الدوار. وقد تركوا لنا كل الشطر المخصص فيها للرجال. وكان الشيخ في هذه الآونة عند الأمير عبد القادر، ولذلك لم يكن في استطاعته السهر على نسائه. وما داموا لا يريدون تعريض النساء للكشف من المجاورين المباشرين وهن في غير مأمن لوجود سبعة أوروبيين، فإنهم قد أحدثوا ثقبة في الحاجز الأوسط للخيمة، وكانت تلك الثقبة هي الصلة الوحيدة بين الجنسين، وعند هذه الثقبة جلس على الفور أحد

أقارب الشيخ جلسة حساسة بحيث كانت تسمح لعينه اليسرى بمراقبة الرجال ولعينه اليمنى بمراقبة النساء.

وحوالي منتصف الليل استيقظنا، فقد كانت ريح شمالية مبردة بثلوج جرجرة جاءت لتثلج سيقاننا التي تجاوزت برانيسنا، وهنا وقعت عيوننا على موقع الرجل الذي تمركز لمنعنا من انتهاك حرمة أملاك الشيخ فإذا به قد اختفى، وقد لاحظنا الحدث دون الادعاء باستخلاص أية ظنون حول شرف جاراتنا، رغم أننا إذا جعلنا حديث الفرسان في اليوم التالي مرجعا فإننا نسمح لأنفسنا بالقول إن سيدات حمزة لسن جد متعصبات. ونود أن نذكر أفضل القول بأن الرجال كلهم مراؤون سواء كانوا تحت البرنوس أو تحت المعطف المقصوص(Frac) .

ولكي ننتهي من حديثنا عن الجنس اللطيف في هذا الدوار نضيف أننا في لحظة وصولنا وضعت زوجة الشيخ خيمة زوجها تحت تصرفنا، وقد أخرجت منها

الحيوانات التي وضعت فيها أثناء غياب الشيخ، ولم تتعفف عن تنظيف هذا الاسطبل المرتجل بيديها والذي لا يختلف كثيرا عن اسطبلات أوجيا (Augias) (*****) وهي إهانة لا تمحو ذكريات الأميرة نوسيكا (Nauccica[1]) التي قيل عنها إنها لا تخجل من غسل ثيابها بنفسها، وأهدى السيد قرافييني إلى امرأة الشيخ كمية من المال جزاء لكرمها فلم تقبل سوى منديل.

* * *

وفي 31 ديسمبر غادرنا "حمزة" مرفوقين بفرساننا الأربعة الذين قادونا إلى البحث عن عبد القادر، وقد اجتزنا "الوادي الأكحل" وهكذا وجدنا أنفسنا في إقليم قسنطينة، وكان اتجاهنا في بادئ الأمر نحو الجنوب الشرقي، ولكن أدلاءنا سرعان ما غيروا بنا الاتجاه نحو جبل جرجرة، وكان الهدف من هذه المناورة

---

[1] - نوسيكا : أميرة أسطورية في إحدى قصص الأوديسة، اشتهرت بأنها كانت تغسل ثيابها بنفسها، ولها قصة غرامية مع يوليوس، وهي رمز الرقة والسذاجة والكرم والرحمة في الأساطير اليونانية، ويدل إيراد هذه القصة وقصة أوجيا وغيرهما على المقارنات الحضارية التي حملها الفرنسيون معهم.

هو جعلنا نتفادى المرور حذو "برج حمزة" وقد مررنا بقرية تسمى "ابن عبد الرحمن" وهي مسماة على مرابط، وهو وليّها، وفيها زاوية أو مدرسة دينية، وكان الأمير قد وضع فيها شاوشا (حارسا) ليمنع المختلسين من الجيش من فرض ضريبة على سكانها.

وقد حصلنا في هذا المكان على معلومات دقيقة حول موقع الأمير، وبناء على المعلومات التي جمعها الأدلاء أخذنا نتّجة نحو الجنوب الشرقي من جديد، وسلكنا الطريق المؤدي إلى الصحراء، وبعد أن اجتزنا غابة الصنوبر الطبيعي التابعة لأولاد منصور، وصلنا عند سفح الجبال إلى واد يعرف في هذه الناحية باسم "وادي الحمام"، إن الأمير الذي أعلم باقترابنا قد أرسل إلينا فرسانا ليعلنوا لنا أن الجيش يتخذ مواقعه، وأن علينا الانتظار حتى تنصب الخيام.

وبعد حوالي ساعة سمعنا أربع طلقات مدافع، علامة على دخول الأمير إلى المعسكر، ثم بعد ذلك

بقليل جاءنا فرسان آخرون وقادونا إلى حيث استقر الجيش، ونزلنا منخفضا يمتد على طول الجبل، ولاحظنا أمامنا، من خلال مخنق ضيق، جزءا من خيام العرب، ثم صعدنا الضفة الأخرى من الشعبة، ولما صعدنا الأكمة حيث كان المعسكر استطعنا أن نراه كله، إن هذا الموقع له كثير من الشبه بمجاز عمار [1] ولكنه فقط أقل منه اتساعا، كان الجنود قد تمركزوا في الشعبة التي كانت محصنة من جميع الجهات عدا الجهة الأمامية. ولا يوجد أي مرصد على الذّرى لمراقبة المنطقة عن بعد والدفاع عن الموقع، ثم قادونا إلى خيمتنا وسط جموع مستغربة من رؤية النصارى. وكانت عصا الشاوش تواجه صعوبة في منع فضولهم المزعج، وكانت خيمتنا تقع على حوالي عشرين خطوة على يمين الأمير، وقد أرسل الأمير من يأخذ خيولنا وأمر أن توضع مع خيوله، كما أمر أن تحمل إلينا على الفور وجبة خفيفة

1 - مجاز عمار موقع قالمة كان الفرنسيون قد استعملوه محطة استراتيجية للهجوم على قسنطينة سنة 1836.

تتكون من التمر والزبيب ومن حلويات محلية، وأمر أيضا بأن لا نشغل أنفسنا بأي شيء وأنه سيتولى كل شيء يخصنا.

وبعد حوالي ساعة أدينا له زيارة قصيرة جدا، وهي زيارة مجاملة صرفة، لقد وجدناه في إحدى هذه الخيام المسماة (الوطاق) والتي تظهر من الخارج مهلهلة أما من الداخل فلها مظهر يتناسب مع الغرض الذي جعلت له، والوطاق يتألف من قماش مزخرف بزخارف عربية كبيرة مؤلفة من الألوان الصفراء والحمراء والخضراء، وقبالة المدخل أي في وسط الخيمة تقريبا يوجد حرم صغير يحتوي على صناديق مغطاة بالزرابي، وفي هذا الحرم كان يجلس الأمير متكئا على بعض الوسائد، وعلى يساره حوالي ثلاثين مجلدا من الكتب، وأما على يمينه فقد وضعت أسلحة فاخرة ومرصعة، وعند قدميه لاحظنا صندوقا مملوءا بالنقود، وفوق رأسه كانت تتدلى ستائر من قماش يسدل حتى

يلامس الأرض عندما يراد فصل الخيمة إلى جزأين، وكان كبير الكتاب أو الخوجات عن يمين الأمير وأحد الشواش عن يساره.

ونحن وإن لم نكن في نظر الأمير سوى زوار غير رسميين، فقد شعرنا أن من الواجب علينا أن لا نفعل شيئا قد يسيئ إلى الإسم الفرنسي، وقد اتفقنا فيما بيننا أن نمتنع عن مظاهر الاحترام التافهة المستعملة في هذه البلاد، وأن لا نقدم إلى عبد القادر سوى عبارات الاحترام المستعملة بين الأوروبيين، فلم نقبل يده، ورفضنا ترك أحذيتنا عند مدخل الخيمة وإن كان الشاوش قد لاحظ لنا أننا سندنّس الزرابي التي يصلي عليها السلطان[1] .

وبعد هذا اللقاء الأول الذي ليس فيه شيء ملفت للنظر، زرنا "سيدي محمد" الذي يسمونه هنا "سيدي علال"، باي (كذا) مليانة، وزرنا كذلك

---

[1] - هكذا الحال، بينما العرب والمسلمون يسارعون إلى تقليد الأوروبيين في طقوسهم الاجتماعية والديبلوماسية وحتى الدينية، دون شعور بالاعتزاز بالتقاليد الخاصة بهم

البركاني باي(ذ) (كذا) المدية، والأغا، وابن نونة، ومرابط سباو، وهو سيدي السعدي الشهير[1].

والرجلان الأخيران (ابن نونة وسيدي السعدي)، قد عينهما الأمير أخيرا لقيادات في شرقي إقليم الجزائر مما يضعهما على قدم المساواة مع البايات. وابن نونة هو الذي كان قائد تلمسان عند استيلاء الفرنسيين عليها (1836) وقد عوضه الأمير بالبوحميدي، رئيس قبائل التافنة.

---

[1] - لقب (الباي) لم يستعمله الأمير وإنما استعمل لقب (الخليفة) لممثليه في الولايات التي أحدثها، إن بيربروجير هو الذي استعمل لفظ (الباي) للدلالة على السلطة التي لدى هذا الموظف في العهد العثماني ومحمد بن علال قد خلف الحاج محي الدين، وقد قتل في معركة الزمالة (1843). وكان محمد بن عيسى البركاني هو الذراع القوية للأمير، وهو من البراكنة، قرب شرشال، ومن المرابطين والمحاربين الأشداء، وكان خليفة الأمير على المدية ومرسوله إلى الزيبان والحضنة وغيرهما. وابن نونة كان قد لعب دور الوسيط في تلمسان بين الأمير وسلطان المغرب عبد الرحمان بن هشام، والحاج سي السعدي كان من مرابطي العاصمة وانضم لحركة الجهاد التي قادها أولا ابن زعموم في متيجة وبودواو، ثم انضم إلى الأمير فعينه على قبائل يسّر وسباو، أما (الآغا) الذي أشار إليه بيربوجير فلا ندري من هو، وأما محمد البوحميدي فقد كان من ولهاصة، وكان رفيق الأمير في الدراسة وظل من صناديد المقاومة الأوفياء للأمير إلى آخر لحظة، حين أرسله الأمير إلى سلطان المغرب (نوفمبر 1847)، للصلح أو تمهيد الطريق للجوء الأمير إلى المغرب ولكن البوحميدي لم يرجع ومات في المغرب وأشيع أنه مات مسموما، وكان ذلك من الأسباب التي جعلت الأمير يفاوض الفرنسيين على التسليم إليهم بشرط تركه يختار منفاه.

ولما انتهينا من واجبات المجاملة، ذهبنا لزيارة المعسكر، ولم ينقصنا سوى المرشدين للقيام بهذا الفحص، إن هناك أولا أسرى مرسيليا الذين كان منهم خمسة وخمسون في جيش الأمير، وكان هؤلاء الأسرى ممتنين جدا لحسن المعاملة التي لقوها في فرنسا[1] ولذلك سارعوا إلى قيادتنا حيث يوجد أي شيء همنا رؤيته. وقد حمونا من الفضول المزعج الصادر عن معظم مواطنيهم ووقاحة البعض الآخر منهم. كما أن الفرنسيين الهاربين من الجيش قد عرضوا علينا أيضا خدماتهم. ولما بدأنا جولتنا كان أحدنا قد أشعل غليونه لملء الفراغ، وهو ما يعتبر أمرا عاديا في مخيم عربي، ولكن أول الأهالي الذي لاحظ ذلك أسرع إليه وطلب

---

[1] - يفهم من السياق أن هؤلاء الأسرى كانوا من الجزائريين ولا ندري الآن كيف أسرهم الفرنسيون في مرسيليا كما أن الكاتب أشار إلى وجود "هاربين" فرنسيين إلى الأمير وسنعرف أن منهم ليون روش الشهير الذي أدعى الاسلام واتقن العربية، وتسمى باسم "عمر" أما الهاربون الآخرون فمنهم من كان هاربا عن قناعة بعدم عدالة القضية التي جاء من أجلها إلى الجزائر، ومنهم من كان هاربا من العدالة الفرنسية، ومنهم المغامرون.

منه إطفاءه. ولم نفهم دوافع هذا المنع في أول الأمر، وإليك شرح ذلك:

إن عددا من علماء المسلمين قد حرموا استعمال الدخان وحتى القهوة، وليس ذلك التحريم المزدوج من نص القرآن ولكن يبدو أن الأمير عبد القادر باعتباره من المرابطين، قد اعتقد أن عليه أن ينضم إلى الرأي الأكثر تشددا، وعلى الأقل فيما يخص الدخان، ولذلك منع التدخين جهارا منعا باتا في معسكره. حقيقة أن كل شخص يعوض في خيمته الحرمان الذي يفرضه على نفسه في الخارج، وهناك عدة مقاهي عامة وأخرى متجولة حيث تدخين الغليون مباح فيها، وفي إحدى الأمسيات زرنا إحدى هذه المقاهي، وهي تسمى (مقهى الباي) وهناك وجدنا عدة شخصيات بارزة من بيت الأمير فأغرقونا بعبارات الاحترام مما جعلنا نعزو ذلك إلى الاستقبال الحار الذي حظينا به عند سيدهم، إن هؤلاء البرابرة لهم استعداد عجيب لحياة البلاطات.

وقد أظهروا قدرة كبيرة على إحراز ثقة مخاطبيهم والتبجيل لدى من يوجدون معهم مما يمكن أن يكون عليه أمهر جلساء الأمراء من أهل أوروبا، ولم نكد نأخد مكاننا على الزرابي، ولم تكن عيوننا تميز بعد بوضوح أنواع الأشباح التي تفصلنا عنها سحابة كثيفة من الدخان، حتى تهاطلت علينا الدعوات من كل جانب لتناول القهوة، إن هذا المشروب يقدم مع "التلوة" (الحثالة)، وما دام الماء الموجود في المعسكر له طعم القطران وكريها، فقد حصل من هذا الصنع مشروب خاثر لم نلبث أن أحسسنا بالتقزز منه، ولذلك كان علينا أن نسرع بمغادرة المكان قبل استنفاد جميع الدعوات التي وجهت إلينا ورغم الإلحاحات الحارة الصادرة من مضيفينا لإبقائنا هناك وقتا أطول.

* * *

ولكن صرامة الأمير قادتنا إلى استطراد يجب أن نخـــرج منه بسرعة، ففي اللحظة التي كان فيها المدخن

منا قد أجبر على إطفاء غليونه، كنا متوجهين إلى الروابي المحيطة بالتل حيث حل جيش عبد القادر.

وبعد أن صعدنا إحدى الكدى التي تشرف على الموقع ظهر لنا منظر عام للمعسكر، لقد كان له شكل دائري، وباستثناء خيمة الأمير التي تقع في الوسط تقريبا ثم الخيام التي تشكل حولها دائرة والمتباعدة الواحدة عن الأخرى بحوالي ثلاثين خطوة، فإن خيام المعسكر كانت موزعة بطريقة غير منظمة مما جعل اجتياز المعسكر أمرا صعبا للغاية، وكانت أكبر الخيام تضم حتى خمسة وثلاثين رجلا، بينما أصغرها لا تحتوي سوى على اثنين أو ثلاثة رجال وهكذا فإن الجميع كانوا يجدون مأوى لهم، وكانت الخيام التابعة للجيش النظامي تحمل على ظهور البغال أو الجمال التابعة للبايلك (الحكومة) أما الخيام التابعة للأعراش والقبائل التي ضمّها الأمير في طريقه فقد كانت تحمل من طرف أصحابها.

ونستنتج مما سبق أن الأمتعة الكثيرة التي عند جيش عبد القادر لا تعرقل السير الطبيعي لهذا الجيش، لأن وسائل النقل كانت من النوع الذي لا تعرقله الظروف الطبيعية للأرض.

وكانت الذخيرة الحربية والزاد وحيوانات النقل موضوعة وسط المعسكر، قريبة من خيمة الأمير، وكان الخيالة موزوعين حول هذه النواة، أما المشاة فقد كانوا يحيطون بالخيالة، وأما المدفعية فقد كانت متمركزة في الأطراف الأربعة للمعسكر. هذا هو الترتيب العام، اللهم إلا بعض الاستثناءات الاضطرارية المتولدة عن العدد الضخم لرجال يصعب إخضاعهم لانضباط تام، ويبدو أن جيش الأمير كان يتألف من خمسة آلاف رجل، وقد قيل لنا إن هناك معسكرا آخر يقوده الميلود بن عراش[1] وأنه غير بعيد من المعسكر الذي نحن فيه،

1- أحد قواد الأمير، وقد تولى الشؤون الخارجية له، وبعد إرساله إلى فرنسا سنة 1838، أشيع عنه أنه أصبح من أشياع التفاهم مع الفرنسيين، وقد أثر عليه المرشال فاليه، حاكم الجزائر، فرضي بتعديل معاهدة التافنة مع ما يتفق والأهداف الفرنسية، ولكنه اشترط موافقة الأمير على رأيه، غير أن الأمير غضب منه ورفض التعديل، وتمسك بنص المعاهدة الأصلي.

وقيل لنا أيضا إنه أعظم من هذا، ولكن لدينا أكثر من سبب في الاعتقاد بأن ذلك مجرد افتراء متخيل لإعطائنا فكـــرة فيها مبالغة عن القوات التي تحت تصرف عبد القادر من المشاة.

والخمسة آلاف رجل الذين تحدثنا عنهم يمكن تصنيفهم على النحو التالي:

أولا الجـــيش النظامي وهو يتألف من 1800 رجل، ولهم رواتب ونوع من البدلات الموحدة تتألف مـــن سروال أزرق فاتح ومن صدرية بنية ذات غطاء للرأس. وهم مسلحون ببنادق فرنسية، ومنها عدد كبير ذات حــراب، وبالإضافة إلى ذلك هناك حوالي 600 فـــارس جـــندوا أثناء الطريق، وليس لهم رواتب ولا وجـــبات مقســـطة من الطعام وإنما يعيشون عالة على غيرهم. وهناك أيضا حوالي 600 من الخيالة النظاميين، وحوالي 2000 من غير النظاميين كانوا قد جندوا على طـــريقة المشاة غير النظاميين ولهم نفس الوضع بالنسبة

للراتـــب والمعاش، وإذا أضفنا إلى ذلك حوالي ثلاثين زنجـــيا يقومـــون بحراسة الأمير ونفس العدد تقريبا من المدفعيين، تكونت لدينا فكرة عن تركيبة هذا الجيش.

أمـــا مدفعية عبد القادر فقد كانت تتكون من أربـــع قطـــع، ثلاثة منها كانت موضوعة على ركائز ســـيئة، وبعجلات ممتلئة، ولكن الرابعة كانت مركبة عـــلى الطـــريقة الأوروبية. ونقرأ على إحداها عبارة "ديـــبون" (Dupont) محـــافظ المصـــاهر الملكـــية في "روشنور". وهي مزخرفة بالدفوف والعمائم والاهلة، ونقـــرأ عـــلى أخرى ما يلي: "ويليام هيقوارت" سنة 1620، وكـــل هـــذه المدافع كانت تنقل على ظهور الـــبغال، رغـــم أنها من حيث الطول والوزن تتجاوز مدفعيتـــنا الجبلـــية. وبدل وضعها على الطول كانت المدافع موضوعة على شكل عرضي، وأثناء السير كان رجـــلان يدعمانهامن كل جانب، ويوجد ضمن رجال المدفعـــية بعض الفرنسيين، أما الذي يقودها حقا فهو

مـــلازم سابق- مارشال دي لوجي المدفعية- كان قد حكـــم عليه بالسجن سنتين لأنه ترك مكانه في مركز المراقبة بسيدي خليفة، وقد هرب من المنفى منذ حوالي خمسة أشهر، ولكن هناك باش طوبجي، وهو لقب يعني ضـــابط مدفعـــية عند الأهالي غير أنه لم يفهم شيئا في خدمة هذا السلاح، ومع ذلك كان يتولى قيادته.

أمـــا القسم غير النظامي من الجيش فهو تجمع حســـب الأعراش، ويمكن أن نقول من هذا الجانب إن كـــل الـــبلاد كانت في أغلبها ممثلة، فهناك أناس من الغرب الأقصى[1] (كذا) ومن تلمسان، ومن بني عامر، ومن الغرابة، ومن هاشم (الحشم؟)، ومن البرجية ومن جـــندل، ومن حجوط، وبكلمة واحدة هناك محاربون من كل أجزاء الإيالة بل إننا نجد حتى فرسانا لفرحات

1- كذا ،ولعله يقصد الجهة الغربية وقد يكون هناك بعض المتطوعين من المغرب حقا، وكان التعامل قويا بين سكان الحدود.

بن سعيد[1] شيخ الصحراء المشهور(ح) الذي كان صديقا لنا ولكنه أصبح الآن حليفا لعبد القادر.

وباستثناء الزنوج الذين يحرسون خيمة الأمير، وكذلك بعض العناصر المتميزة المتمركزة خارج المعسكر، فإن خدمات المراقبة والشرطة خلال النهار كان يقوم بها الشواش المسلحون بالعصي، وهم يستعملونها بكثرة ولكن ضد الاحتياطيين فقط، ولم نلاحظ أبدا أن العصي قد استعملت ضد العسكر النظامي. أما خلال الليل فإن الخيام التي صففت بشكل متباعد ومنتظم في دائرة المعسكر كانت تشكل مراكز المراقبة العسكرية خاصة في مقدمتها، وكان على هؤلاء ألا يبتعدوا كثيرا عن بقية الجيش، لأننا ونحن نازلون

2- فرحات بن سعيد وهو شيخ العرب ناحية الزيبان، وهو من عائلة بوعكاز الشهيرة والتي ترجع إلى بني هلال، وكانت تنافس عائلة ابن قانة على مشيخة العرب، وكان أولاد ابن قانة هم أصهار وأخوال الباي الحاج أحمد، فمنحهم مشيخة العرب وعزل منها أولاد بوعكاز، مما جعل هؤلاء يصبحون أعداء له وأعداء أخواله بالطبع، ولكن أولاد ابن قانة انضموا للفرنسيين بعد احتلال قسنطينة وتخلوا عن الحاج أحمد. ولم يكن فرحات "حليفا" للفرنسيين وإنما طلب مساعدتهم سنة 1832 ضد نفوذ أولاد ابن قانة في الزيبان، فلم يقدموها له، وحين وصل نفوذ الأمير إلى الونوغة والزيبان وسطيف، على إثر معاهدة التافنة انضم إليه فرحات ابن سعيد وقد عينه بعض الوقت خليفة عنه في ولاية الزيبان (بسكرة).

وسط المعسكر، كنا نسمع بوضوح ومن مسافة قصيرة، صيحات "الله دائم!" التي يرددونها طول الليل، وهي تعني عندنا: أيها الحارس كن يقظا!

ورغم جهود الأمير في إعطاء جيشه صبغة من التنظيم العسكري الأوروبي، فإن هذا الجيش لا يمثل سوى كتلة غير خطيرة بالنسبة لجنود منضبطين[1] ولكن ما دام عبد القادر قد حافظ على الامتيازات التي تجعل الأهالي يتفوقون علينا، ومن أبرزها سرعة الحركة، وكذلك تفوقه الناتج عن التنظيم وإن كان غير متقن في حد ذاته فهو خير من الفوضى التامة، قلنا ما دام عبد القادر كذلك فإنه انتصر في كل مكان.

ومنذ هذه الحملة التي دامت خمسة أشهر اجتاز الأمير الإيالة (الجزائر) من أقصاها إلى أقصاها، محاذيا للصحراء، تاركا الحاميات في كل مكان، بما في ذلك (بابا دندان) الواقع بأقصى القبلة- الجنوب-(ط) ، وإن

---

[1] - يقصد بيربروجير هنا الجيش الفرنسي.

نواة جيشه النظامي قد سمحت له أن يجد احتياطيين أو بالأحرى متطوعين في الأعراش والقبائل التي يمرّ بها، وإذا حدث أن تخلى عنه مؤقتا بعض هؤلاء فإنه على الفور يعوضهم بأولئك الذين يجندهم أثناء تنقله المستمر.

ومن بين العمليات العسكرية التي نفذها الأمير أخيرا، تلك التي تحدثنا عنها والتي وجهت ضد أهل ونوغه المنتشرين من الوادي الأكحل إلى البيبان، فقد أخذ منهم 2500 شاة، وألف رأس من البقر، ومائة مهرة، و50 حصانا، و 170 بغلا، وكل ذلك كان بدون حرب تقريبا. وقد رأينا سبعة من رؤوسائهم يمشون أمام عبد القادر، وقد وضعت الأغلال الحديدية في أعناقهم جميعا، مع حلقة ربطت فيها سلسلة طويلة كانت توثقهم جميعا، وقد أجبر شيخ البيبان نفسه، وهو الحاج محمد بن عبد السلام المقراني، على

الاستسلام[1] ، وقد زارنا هذا الشيخ ذات يوم في خيمتنا، وبعد أن ندد بوضعه الحالي قال لنا:" منذ زمن بعيد كانت القبائل التي أقودها هي صاحبة السيادة في البيبان، وكل البايات لا يجتازون المنطقة إلا بعد أن يدفعوا ضريبة، أما الآن فقد أصبحنا نحن ندفع الضريبة لعبد القادر!

إن ما يعطي خاصية متميزة للحملة الأخيرة التي قام بها الأمير هو أنها مثلت خرقا واضحا للمعاهدة (التافنة) ففرنسا لم تتنازل عن أقليم قسنطينة لعبد القادر، وهو بتوغله في الإقليم – على النحو الذي ذكرناه – قد تخلى عن كل التزاماته، وبالتالي فهو لم يخطئ عن جهل ، وهو يعرف جيدا عواقب ما قام به، غير أنه يبرر سلوكه هكذا:

"إن أهل التيطري وعريب حمزة وأهل ونوغة يتنازعون المناطق الواقعة بين "الوادي الأكحل" و

1- أصبح محمد بن عبد السلام المقراني خليفة الأمير على مجانة، وقد انضم برضاه وإرضاء لطموحه، وعند الضغط الفرنسي عليه استسلم محمد بن عبد السلام إلى الفرنسيين.

الأمير مسرعا ليرث تركة (الحاج) أحمد ولكن الظروف لم تكن كما كان يتصورها، فاكتفي بالاستحواذ على جزء من المنطقة الواقعة في طرف الأقليم، راضيا بكونه قد ضمن تقريبا السيطرة على البيبان، المشهورة باسمها "أبواب الحديد" التي سيجتازها في اليوم الذي يشعر فيه أنه لا حاجة له في استرضائنا.

إنـــه من الواضح أن الأمير يخطب ودّ قسنطينة بكـــل قواه، ورغم السرية الطبيعية المعروفة لدى قومه، فهو لا يكاد يخفي رغبته هذه ، فقد قال لنا ذات يوم: "ومـــاذا ســـيفعل الفرنســـيون في هـــذه المدينة؟ فهم سيصـــرفون أموالا طائلة، بدون نتيجة وهم ابتداء من الربـــيع القـــادم، سيكونون محاصرين من قبل (الحاج) أحمـــد، وســـيحتاجون إلى جيوش لتمويلهم فليعطوني قســـنطينة وألتزم بتسليم (الحاج) أحمد إليهم في ظرف خمســـة عشـــر يوما[1] إنه كان متأكدا من تحقيق هذا

1- يبدو أن ذلك كان مجرد مناورة من جانب الأمير، ذلك أنه كان قد راسل أعيان قسنطينة، كما راسل الحاج أحمد، وعلي بن عيسى يطلب منهم الانضمام إليه والتعاومن على توحيد البلاد. وقد رد بعضهم ردا سلبيا، ومنهم الحاج أحمد، وفي

الوعد الأخير، ولكن من المشكوك فيه أن هذا العرض سيكون مفيدا لفرنسا مقابل مطلب الأمير.

وإذا تـــأمل الإنسان في جملة النتائج التي ترتبت على الحملة الطويلة التي يواصلها الأمير في هذه الآونة، فإننا نجد أن النتيجة الرئيسية لها تعتبر ذات طبيعة مالية، فهـــو لا يكـــتفي بجباية الضرائب حيثما حل، بل أنه يشـــترط دفـــع مخلفـــات سنوات الاحتلال الفرنسي الثمانـــية، وهـــذه الاجراءات المالية قد ضخمت من ميزانيته أو بالأحرى أصبح له ميزانية، وقد مضى وقت كـــان لا يملك أكثر من 30.000 فرنك، وهي التي ما تـــزال موضـــوعة عند اليهودي ابن دوران[1] (Ben Duran) بالجزائر ، إن هذا المبلغ قد نما بصورة واضحة وأصبح الأمير الآن يملك موارد مالية معتبرة.

لقـــد رأيـــنا سابقا كيف وقع الخرق الواضح لـــلمعاهدة من قبل عبد القادر، وبعد هذا لا يمكن أن

(مراسلات المارشال فاليه) نماذج من ذلك إذ اتصل الفرنسيون ببعض تلك الردود، ولعلهم استولوا عليها بطريق الجوسسة.

1- انظر سابقا.

تصـــدر عنه الشكاوي والاتهامات لنا، ومع ذلك فإن الـــذي حدث هو ذلك، فهذا الزعيم الذي يدوس على الالتزامات الأكثر تأكيدا لا يفتا يستنكر عدم إخلاصنا لتعهداتـــنا، إن باياتـــه (خلفـــاءه) والأعيان الآخرين يكـــررون نفس الشكوى كالأصداء له. وبالاستماع إليهم جميعا نكاد نصدق أن الأمير والعرب هم الضحايا الحقيقيون لمداهناتنا.

* * *

وقـــبل أن نذكر هذه الشكاوي فإننا نرى من الفـــائدة الـــتذكير بســـوابق الأمير وإعطاء فكرة عن شخصيته، كما تظهر مباشرة من خلال أقواله وأفعاله:

ففـــي 3 مايو 1832 وصل إلى أسوار وهران بعض المئات من العرب يقودهم مرابط من معسكر اسمه محـــي الدين (أي ذلك الذي يحي الدين)[1] وفي طريقه

1- بدأ الشيخ محي الدين واتباعه ومنهم ابنه عبد القادر، يهاجمون الفرنسيين في وهران منذ احتلالها، سنة 1830 واستسلام الباي حسن بن موسى هناك، ولجأ محي

انضـــم إليه الناس وتدعم بفرق متواصلة إلى أن وصل العـــدد إلى عشـــرة آلاف رجل، وقد ظلوا يهاجمون وهران ليلا ونهارا إلى صباح اليوم من الشهر المذكور.

وهـــذا المـــرابط الذي كان له صوت قوي في دعوة المسلمين للجهاد هو والد عبد القادر، فقد كان هذا مع والده، وتحت أسوار وهران بدأ الأمير استعماله الأول للســـلاح، وقد لاحظ المرافقون له أن الأمير قد تمـــيز عـــندئذ كثيرا أثناء المعارك التي شنّها وفي نفس الوقت فإن المدونات الرسمية التي تخبر عن هذه المعارك الســـاخنة تشير حتى إلى اسمه ذلك أنه لم يكن في ذلك العهـــد، كما يحلو له أن يكرر ذلك الآن سوى واحد من أربعة أولاد لأبيه، وليس له من ثروة سوى حصانه وسلاحه. **وليس له ما يرفع من قيمته** (أصلي) سوى تجـــريد العدو الذي يقتله في المعركة، وقد مضت ست ســـنوات على تلك الأيام، وأصبح الابن النكرة لمرابط

الدين إلا الاستنجاد بسلطان المغرب، وذلك كله قبل أن يواجه الضغط من المقاومين ليكون "سلطانا" عليهم وقبل أن يتنازل في ذلك لابنه عبد القادر.

قبيلة هاشم **سلطانا للعرب** (أصلي) ، ذلك أن لقب **أمير المؤمنين** (أصلي) لم يكن كافيا لطموحه، وقد أعطته معاهدة الجنرال ديميشال[1] البلاد الممتدة بين حدود مراكش (المغرب) والشلف، وأضافت إليه معاهدة التافنة إقليم التيطري وجزءا كبيرا من إقليم الجزائر (العاصمة) وأوصلته إلى قمم الأطلس حيث يتابع بعين شزراء المحاريث النصرانية التي بدأت تحرث سهل متيجة، وطريقة الأمير في فهم المعاهدات قد سمحت له أن يزيد توسعا في هذه المناطق التي هي حاليا واسعة جدا، وقد رأينا أنه استولى أخيرا على جزء جديد، رغم أنه جزء صغير فعلا، من إقليم قسنطينة، وهو حذر جدا من أن يجتاز البيبان، ولكنه يكتفي بمحاذاتها ويتوجه نحو سيرتا (قيرطا) القديمة مرورا ببسكرة، وإذا نظرنا إلى ذلك من الناحية المادية (الطبيعية) فإن ذلك يعتبر الطريق الأطول، ولكن من

1- ديميشال كان الحاكم الفرنسي لمدينة وهران، وهو الذي وقع مع الأمير العاهدة المعروفة باسمه (ديميشال)، فبراير 1834.

يـــدري فقـــد يكـــون هو الطريق الأقصر من الناحية السياسية.

وبالـــنظر إلى المصالح الفرنسية فإننا إذن ندين المبالغة في رفع شأن عبد القادر، ولكننا لا نستطيع أن نمـــنع من الاعتراف بأن هذا الزعيم كان دائما جديرا بحظوظ عالية، ففي نفس الوقت الذي عرف فيه كيف يغتنم فرصة الظروف المؤاتية كان أيضا لا يترك الفرصة لخصـــمه أن يهـــزمه، وفي اللحظة التي يظهر فيها كل شـــيء ميؤوســـا منه بالنسبة إليه يكون جيشه متفرقا وعاصـــمته شـــبه مخربة، حيث ليس له سوى نفر من فرسان بني عامر والمخلصين له من هاشم، وهم قبيلته، الذين يؤلفون القوى الوحيدة التي يمكن التصرف فيها- وصـــلت إلـــيه رسالة تهديد فيها وصف لحالته المزرية والـــنزر اليسير الذي بقي للقضاء عليه[1] وهاهو جوابه عـــلى ذلك: "عندما تكون جالسا على الشاطئ وأنت

1- لا نعرف من هو صاحب هذه الرسالة، ولكن تعليق الأمير عليها ظل حكمة خالدة.

تنظر إلى السمك السابح بحرية في البحر فإنه يخيل إليك أن الأمـــر لا يحتاج إلا إلى مد اليد لصيده، ومع ذلك فإنه يجب توفير كل المهارة وشباك الصيد إذا كان المرء يرغب في أن تكون سيد الموقف، والأمر كذلك بالنسبة للعـــرب". وفعلا صمد الأمير، ونحن نشهد أنه لم يبال بذلك، وأنه في وضع غير مأساوي.

ولايحتاج الإنسان إلى أن يكون وصافا (فيزيونوميست) مختصا ليبين، من أول وهلة، أن الأمير ما هو إلا أحد المتعتصبين الطموحين، موهوبا بروح عالية تمارس تأثيرا كبيرا على متدين بعمق، وهو الشعب العربي، وإذا كان هذا السبّر الأول غير كاف فيجب أن نتأمل هذا الرجل أثناء أدائه الصلوات التي فرضها الإسلام وهو راكع خمس مرات في اليوم أمام خيمته على مرأى من الجميع، وساجد بحرارة واضعا جبينه على التراب أو على الوحل، وعلى هذا الوجه الشاحب وفي نظراته الحزينة والانوفة في نفس الوقت، نقرأ

السمك السابح بحرية في البحر فإنه يخيل إليك أن الأمر لا يحـــتاج إلا إلى مد اليد لصيده، ومع ذلك فإنه يجب توفير كل المهارة وشباك الصيد إذا كان المرء يرغب في أن تكون سيد الموقف، والأمر كذلك بالنسبة للعرب".

وفعلا صمد الأمير، ونحن نشهد أنه لم يبال بذلك، وأنه في وضع غير مأساوي.

ولايحتاج الإنسان إلى أن يكون وصافا (فيزيونوميست) مختصا ليبين، من أول وهلة، أن الأمير ما هو إلا أحد المتعصبين الطموحين، موهوبا بروح عالية تمارس تأثيرا كبيرا على متدين بعمق، وهو الشعب العربي، وإذا كان هذا السبّر الأول غير كاف فيجب أن نتأمل هذا الرجل أثناء أدائه الصلوات التي فرضها الإسلام وهو راكع خمس مرات في اليوم أمام خيمته على مرأى من الجميع، وساجد بحرارة واضعا جبينه على التراب أو على الوحل، وعلى هذا الوجه الشاحب وفي نظراته الحزينة والأنوفة في نفس الوقت، نقرأ

ببساطة معنى الاستجداء لتحقيق أعلى مكانة في مملكة الآخرة، وذلك لا ينفي الإرادة في تكوين مملكة أخرى في هذه الدنيا، وفي الظروف الحالية حيث العرب، وهم في حالة من الفوضى على إثر سقوط السلطة التركية، يطالبون بصوت عالٍ أن يكون لهم حاكم، فإن رجلا من طراز عبد القادر له حظوظ كبيرة في النجاح.

وعندما نعلم سوابق الأمير نفهم جيدا العلاقة بينه وبين الشعب العربي الذي استدعاه أو قبل به، فإننا نستطيع أن نقدر ببساطة، الشكاوى التي يعلنها الأمير ضد فرنسا حول موضوع المعاهدة، وأن ننفذ بعمق إلى دوافع وأهداف هذه الشكاوى.

فقد شكا إلينا عبد القادر من أن الحكومة الفرنسية لم تدفع إليه البارود وكل البنادق التي وعدته بها، فأجبناه بأنه هو بدوره قد عارض ما كان الفرنسيون قد اشتروه من خيول في البلاد. ولما أجابنا بأنه لا يوجد منها الكفاية لخدمة جيشه لاحظنا له بأن

الوضع كذلك أيضا بالنسبة للبارود والبنادق وأنه لم يقدم لذلك سببا مقنعا، وقد ظهر الأمير مترعجا جدا من كوننا[1] لم نقبل السيد قرافيني وكيلا عنه (قنصلا) وادعى الأمير أنه باختياره رجلا مسيحيا ليكون ممثلا له إنما فعله ليرضي فرنسا، وأنه بدلا من نواياه الحسنة جُوبِهَ بالعكس أي برفض صارخ لتعيينه.

وبالنظر إلى هذه التظلمات المزعومة، فإنه من حسن حظ فرنسا أن تواجه الأمير بتظلمات حقيقية، وذلك بإثارة مسألة الحملة على الونوغة وانتهاك المنطقة بضمها إليه، ونستطيع أن نشتكي بدورنا أيضا من ترويجه بين جميع المحيطين به من أن البليدة والقليعة تابعتان له بناء على المعاهدة، وهذا هو الرأي العام في جيشه، وأن العرب يعتقدون ذلك ما دام الأمير يجبى الضرائب من المدينتين.

[1] - يقصد الحكومة الفرنسية.

والخلاصة أننا نعتقد أننا وجدنا في عبد القادر الزعيم الذي يطمح إلى المجد الذي يمدّن شعبه مثل ما فعل محمد علي في مصر، وقد اعتقدنا حقا أنه كان بصراحة نائبا Lieutenant عن ملك الفرنسيين وأنه يعترف بهذا الملك كصاحب سيادة عليه، ولكن الأمير تكفل بنفسه بإزالة هذه الأوهام، ومن هذه الزاوية لا يمكن أن ننكر شجاعة الصراحة، فقد تكلم إليه أحدنا عن الفوائد التي ستجنيها الأمتان إذا وصل (الأمير) إلى قيادة العرب إلى الحضارة الأوروبية، فأجابه عبد القادر بأن هذه الفكرة لا تجول بخاطره وأن اليوم الذي يشك فيه قومه أنه يحملها فإنهم سيتخلون عنه جميعا. أما عن مسألة السيادة الفرنسية فإنه لم يكن من الصعب علينا أن نلاحظ أنه وإن كان يقبل بها في الواقع فإنه لا يعترف بها شرعا، إن هذه السيادة تعتبر ضرورة غير مريحة يقبل بها مؤقتا، ولكن أعماله ومشاريعه كلها تعمل بدون هوادة على التقليل منها، ولكي يصل إلى

هذا الهدف استعار بعض حضارتنا، غير أن هذه الاستعارة ، وهي قليلة على كل حال، لم تظهر في وقتنا الحاضر سوى في تنظيمه العسكري.

إن حملة الأمير في الحدود القبلية (الجنوب) تبدو أنها تؤكد ما سبقت الإشارة إليه، وبقطع النظر عن الهدف المالي فإن لعبد القادر هدفا آخر كان نصب عينيه عندما قام بهذه الحملة، إنه يريد إحداث خط ثالث للعمليات يمكن تسميته بخط التراجع، فحول كل النقاط التي نحتلها على الساحل توجد قبائل مثل الغرابة في وهران والحجوط في الجزائر، وهي دائما مستعدة لممارسة الحرب ضد الأوروبيين، إن ذلك هو الخط الأول لعبد القادر ، وهو خط الهجوم في الأقليمين الغربيين. ووراء هذا الخط يوجد حزام من المدن هي تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية التي تشكل خطا وسطيا للعمليات في الأوقات العادية، فإذا كانت التجربة قد علمت الأمير أن الفرنسيين يمكنهم الوصول

إلى هذه المدن أيضا فإنها علمته كذلك أنهم لن يبقوا فيها، وبالتالي فهم غير متحمسين للرجوع إليها، ومهما كانت الأحوال فإنهم سيحتلون هذه المدن، وإن عليه أن يجد في الحدود القاصية للإيالة (الجزائر) خطا ثالثا لا يمكن الهجوم عليه نظرا لبعده، وأمام الصعوبات التي تواجهنا في التوغل بحملات على مسافة أربعين فرسخا داخل البلاد، فإن الأمير يقدّر أنه سيكون من الصعب على الفرنسيين الوصول إلى تلك الأماكن، وهو نوع من التخمين الذي يبقى صالحا ما دام جيشنا الافريقي غير قادر على أن يكون متحركا مثل تحرك جيش العرب.

ومن أجل تأمين هذا الملجأ أعاد الأمير بناء (تاقدامت) وعمّر حصونا أخرى على حدود الصحراء، وبالتالي فإنه لم يخف عنا هذه النية، وقد قال لأحدنا بأنه إذا جرت حرب بينه وبين الفرنسيين مرة أخرى فإنه سيتفادى بكل عناية كل مواجهة معهم، وأنه

سيتراجع أمامنا، مقتنعا تماما بأننا لا يمكن أن نواصل الحملة مدة طويلة، وأننا لا نريد أن نقيم احتلالا دائما للمدن الداخلية.

ومع المؤهلات المميزة لعبد القادر فإنه لا شك سينجح في مشاريعه لو كان يملك الموهبة الضرورية للطموحين وهي التحلي بالصبر، ولكنه يسير بسرعة كبيرة، وفي سيره الحثيث نحو الهدف فإنه لا يحافظ حتى على المظاهر، وقد فهم مع ذلك وصارحنا بالأمر، وهو أن فرنسا تتأثر بكل ما يجرح شرفها، أكثر مما تتأثر بما يمس مصالحها المادية فقط، إن ذكاءه الحادّ قد كشف له هذه الحقيقة، وأنه سيكون عليه أن ينظم سلوكه نحونا، ولكن طموحه، وهو أعظم من كل شيء، يدفعه إلى الأمام، ولذلك فهو لا يتوقف إلا إذا رأى آخر فرنسي قد ركب آخر سفينة وارتحل أو إذا قامت فرنسا بقصم ظهره هو[1] إن هذه الأحكام عن الأمير

1- اختار الفرنسيون بعد مناورات غير مجدية الحل الثاني، منذ نوفمبر 1839، حين خرقوا معاهدة التافنة، ومع ذلك ظلت الحرب محدودة إلى 1841 حين=

قد تظهر قاسية، ومع ذلك فإنها تعبير صادق عن ملاحظة متأنية ونزيهة، وأكثر من ذلك فإن الذي أبدى هذه الأحكام لم يسلم من شدة تأثير الأمير عليه، وهو التأثير الذي يخضع له كل من اقترب منه. وليس عليه سوى أن يمدح سلوك هذا الزعيم. ولكنه يرى أنه من الواجب عليه أن يعرّف الآخرين بكل ما رأى وما يشعر به في كل أبعاده. وبينما يحب شخص الأمير فإنه يعتقد أنه من الضروري عدم إخفاء مشاريعه، وهي المشاريع التي لا يخفيها الأمير نفسه.

إن الاستعجال (قلة الصبر) الذي كان يدفع هذا الرجل ليسيطر على الأيالة كلها قد بلغ درجة من الوضوح حتى لقد طلب بجدّية ما إذا كان الحاكم العام سيرخص له باجتياز سهل متيجة على رأس جيشه، وهو لا يجهل الهيجان الذي يحدثه اقترابه من السهل (متيجة) وهو يريد أن يمارس على العدد القليل من

=رخصت الحكومة الفرنسية للمارشال بوجو بالمال والجيش اللازمين لقصم ظهر الأمير بإعلان الحرب الشاملة

القبائل الموالية (لفرنسا) موهبته الجذابة وسحره والتأثير الذي يملكه على أعلى مستوى، إن هذا الاجتياز — لو تمكن منه– سيكون بالنسبة إليه زرعا جيدا يستثمره في المستقبل.

لقد اقتربت لحظة مغادرتنا، فأسرعنا للاستفادة من الوقت الضيق الذي بقي لنا لاستكمال دراستنا للأشخاص وللأشياء التي من حولنا، وقد انفتح أمامنا فجأة حقل للملاحظات.

إن من بين مرافقينا في السفر هو الدكتور بوديشون الذي أحسن التصرف عندما حمل معه حقيبته الطبيّة وبعض الأدوية، وعندما شاع في المعسكر أنه طبيب تراكمت عليه الخدمات، لقد كان العرب كلهم ملهوفين من أجل رؤيتنا عن قرب وإذا حدث أن تقدموا منا وأطالوا التوقف، وهم بأعداد كبيرة قرب خيمتنا، فإن شواش الأمير يأتون إليهم ويفرقوهم بضربات العصي. وكانوا لا يبالون عندئذ أن يجدوا

مبررا في البقاء بالقرب منا دون خوف من الضرب. وهكذا أصبح كل المعسكر مريضا، إن أغلبهم كان يشتكي من وجع الأسنان. ولا يعرف الطبيب إلى من يستمع. فاقترحنا عليه طريقة للتخلص من المتظاهرين بالمرض، وهي طريقة تتكون من الكشف عن آلاته الضخمة بشكلها وحجمها، ويتظاهر باستخدامها عندما يتقدم أحد أولائك المرضى المزيفين، وقد نجحت العملية نجاحا كبيرا، فكلما كان الموضوع يتعلق بالشروع في العملية يجد المريض نفسه فجأة صحيحا معافى وسرعان ما يختفي.

وكان سيدي السعدي الشهير المنحدر من نسل المرابط الذي ما يزال يوجد قبره في باب الواد إلى جانب قبر سيدي عبد الرحمان[1]، من بين الزبائن أيضا. وقد وضع له الطبيب ضمادة على جرح خفيف في ساقه، وهو جرح لا يرجع تعفنه إلا لعدم النظافة

1- المقصود ضريح "سيدي عبد الرحمان الثعالبي"، وضريح "سيدي السعدي" الجد كان غير بعيد منه، أنظر سابقا.

فقط، وقد تحدث إلينا سيدي السعدي كثيرا عن اقتراحاته الساذجة التي كان قد تقدم بها إلى الحكومة الفرنسية عندما طلب منها تسليم قصبة الجزائر مع حق رفع العلم الأحمر (علم الجزائر العثمانية) والتزامه أمام ذلك بتوطيد الأمن بين العرب.

والخلاصة أن أغلب المرضى مرضا خطيرا والذين تقدموا إلى الدكتور كانوا يعانون من إصابات جلدية، وكان بعضهم يعانون من الالتهابات المعوية التي تسببت فيها نوعية المواد الغذائية، إن الجيش كان لا يتغذى منذ أمد طويل سوى بالبرغل، وهو القمح المدشش المغلّى.

* * *

وفي الثاني من يناير سنة 1838 رفع الأمير معسكر "وادي الحمام"، ولكن بدل التوجه ليعسكر في المكان المعروف بالبويرة قرب "برج حمزة" فإنه قادنا إلى

الطـــرف الآخر من السهل، وبينما هو نفسه قد ذهب لزيارة المكان الأخير "برج حمزة" فإنه أرسل إلينا فرسانا لكـــي نبقى على ضفة "الوادي الأكحل"، وفي انتظار نصب الخيام حسبما قال لنا.

إن الرحـــيل من "الونوغة" قد جلب اهتمامنا، فإننا لاحظنا الجهود التي بذلها الأمير لكي يجتاز المضيق بانـــتظام ، بـــل إنه تمادى في احتياطاته مما جعلنا نسير لنـــتوقف في مكان يسمح لنا أن نرى بأعيننا ما يجري أمامنا. ورغم كل هذه العناية، بل ورغم عصا الشواش فـــإن اجتياز المضيق قد جرى في فوضى غير متناهية، فالفرق العسكرية كانت تسير في كل الممرات الممكنة حتى تلك التي تظهر غير صالحة للاجتياز. وقد وصلت الحقائـــب والمشـــاة والفرســـان في حالـــة كبيرة من الاخـــتلاط. والأمـــر الذي استطعنا أن نحقق منه هذه الفوضـــى هـــو أن الأمـــير كان يرغب بالخصوص في اســـتعراض مشـــاته بطريقة نظامية جيدة، والحقيقة أن

المشاة احتفظوا بظاهرة الانضباط، ولكن عندما وصل الجيش إلى السهل، فإنه تصرف بحرية، وهي الظاهرة التي يحبها العرب بصفة خاصة والتي هي المحببة عندهم أكثر من غيرها عندما يسمح الميدان بذلك، ألا وهي السير في وضع المعركة، مشكلين صفا واحدا كبيرا فقط، يمينه كان معتمدا على ناحية الجبال المحاذية للصحراء، وشماله كان مقتربا من جرجرة.

وفي المقدمة لا حظنا المدفعية ويليها بقليل الأسرى وهم مكبلون، ثم الأمير على رأس مخزنه أوقيادة أركانه، مع الأعلام والموسيقى، وكانت الأمتعة مصففة على الجانبين. ولكي يعطونا فكرة عن مهارتهم في ركوب الخيل، قام العرب باستعراض مثلوا فيه الكرّ والفرّ، بل إنهم قاموا حتى بالتهاجم بالسيوف، ومن وقت لآخر كان الفرسان يأتون ويركضون ثم يطلقون نيران بنادقهم أمام الأمير.

وبكلمة واحدة فإنهم قاموا خلال هذا السير بتنفيذ كل ما يمثل عندهم الفروسية (الفنطازية) لقد كان عبد القادر أعلمنا بهذا النوع من الاحتفال الذي أقيم بمناسبة حضورنا والذي من أجله أمر بتوزيع خاص للخراطيش.

إن السرور الذي أدخلته علينا هذه الحرب (الاستعراض) الصغيرة قد ضاعفت من أحداث لم تكن في الحسبان. فهذه الكتلة السائرة هكذا في صف واحد وهي تحدث جلبة قد أدت إلى إخراج الحيوانات بأنواعها من جحورها ومن كل جانب، فهناك يسقط خنزير بري برصاصة أحد الفرسان، وهناك طيور الحجل تصطاد وهي طائرة بضربة عصا مسددة بيد ماهرة من أحد أفراد الجيش. ولكن ما شدّ انتباهنا بالخصوص هو رؤية خمسمائة أو ستمائة فارس يطاردون أسدا في السهل الواسع الذي كنا نجتازه، دون

إطلاق أية رصاصة عليه، فاصطادوه بعد أن أنهكه التعب.

* * *

وقبل مغادرة المعسكر كان لنا مع عبد القادر آخر حديث، وقد دام أكثر من ساعة، لقد كان حديثا رائعا نظرا لطبيعة الموضوعات التي عولجت فيه، ولا سيما من حيث الآراء التي كانت كلها جديدة علينا والتي من خلالها استطعنا أن نلاحظ حقيقة شخصية الأمير. فإلى ذلك الحين لم نكن نعرف سوى الزعيم الطموح الذي يعطي بأقواله وملامحه وهيئته والهيبة المهيمنة والمنسجمة مع الادعاء الذي يعلنه وهو أنه سلطان العرب. ولكنه في هذه المرة قد تجرد من المجاملات الرسمية فظهر لنا (عبد القادر) الإنسان دون تكلف، غير أن حالة الانبساط أثناء تجاذب أطراف الحديث لم تغير إطلاقا من هيبته المعتادة، كان عندنا إذن الوقت الكافي للتأمل في عبد القادر طويلا، وعلينا

أن نعترف بأنه لا يشبه في أي شيء الصورة البذيئة التي تروج عنه في فرنسا مع الإدعاء أنها هي صورته[ي] ، إن الفنان الذي وظف خياله ظن أن عليه أن يقدم الأمير في مظهر الجلف والسفاح من نوع (البارب بلو)[1] ، إن عبد القادر على العكس من ذلك، فهو رجل متميز بمظهر الوداعة والحزن الذي يحتفظ به حتى في الوقت الذي تفرض عليه طبيعة عمله أن يكون ذا وجه صارم وسط أتباعه، وفي نفس الوقت فإن المشاعر التي تطغى على ملامحه هي مشاعر ذات طبيعة كلها دينية، إن الوجه له شيء من الورع الذي يذكر المرء برؤوس الرهبان الجميلة من ذلك النوع الذي تركته لنا العصور الوسطى، وهي تلك الرؤوس التي تذكرنا بالرهبان المحاربين الذين نلتقي بهم كثيرا وسط ضجيج المعارك أو في السكينة المعتمة للأديرة، إن الثياب العربية التي تشبه

1- "البارب بلو" عنوان قصة من تأليف بيرو، واسم لبطلها، وهو عنوان على الوحشية والقسوة.وقد تزوج ست نساء وذبحهن وجعل السابعة مثلا للمحنة والعذاب.

كثيرا ثياب الرهبان تجعل المقارنة التي أشرنا إليها أكثر تعبيرا عما نقول.

ولنقل: إن وجه عبد القادر مستطيل وقريب من الامتلاء، ومع ذلك فهو وجه شاحب جدا، وعيناه الجميلتان فعلا كانتا في حركة تتعارض مع الوقار المعتاد لرأسه، أما لحيته فهي فاحمة السواد وكثيفة، ولكن يديه لا تظهران في روعة كبيرة رغم أن أغلب الذين ترجموا له من المشهود لهم، قد جعلوه متميزا من هذه الناحية، ولنضف أن قامته قصيرة وأنه يعاني من عيب مشترك بين العرب الذين لهم قامة قصيرة، وهو إحناء الرأس كثيرا نحو الأمام لضرورة تفرضها مقاومة جذب البرانيس التي تجعلها الطربوشات المتدلية على الظهر تحاول أن تجذبه إلى الخلف.

ولنقل أخيرا إنه لنفس السبب تظهر كتفا عبد القادر منحنيتين قليلا وهذا لا يعطي، كما نشعر، فكرة كافية عن المظهر الجسماني لعبد القادر، ولكي نعطي

قراءنا الذين كانت لهم فرصة لرؤية العقيد يوسف[1] الباي السابق لقسنطينة، نقول إننا لاحظنا بعض الشبه بينهما في الملامح فقط، أما من حيث التعبير الفيزيونومي فإنهما مختلفان كثيرا، ونحن نحيل أولئك الذين لا يمكنهم عقد المقارنة، على المجموعة الجميلة من المناظر الجزائرية التي جمعها الضابط "جني" (Genet) والتي ستظهر قريبا وفيها صورة الأمير مرسومة رسما حقيقيا على الطبيعة.

وبينما نحن منهمكون في هذا الفحص لشخص عبد القادر أخذت المحادثات وقد تحررت من عبارات المجاملة والآداب الثقيلة التي يجعلها العرب مقدمة ضرورية دائما، تدور حول موضوعات أكثر أهمية من

1- العقيد يوسف (أصبح جنرالا) وهو لقيط ادعى للفرنسيين أنه ابن غير شرعي لنابليون الأول كان قد اسره التونسيون وتربى في قصر باي تونس، ثم هرب من هناك إلى الجيش الفرنسي في الجزائر، وكان يعرف العربية والعادات الإسلامية عينه كلوزيل (بايا) على قسنطينة ومقره عنابة عند عزمهم على مهاجمة الحاج أحمد واحتلال عاصمته (قسنطينة) سنة 1836. وقد عانى الجزائريون من شرور اللقيط يوسف طيلة سنوات عمله في الجيش الفرنسي.

الحديث عن الصحة وحالة الطقس، أحد مرافقينا في الرحلة حادث الأمير عن شخص يسمى "جوفا" (Jovas) ، وهو ربان السفينة (كاستور) التجارية، وكانت عندئذ في مرسى الجزائر، ففي هذه الباخرة ومع هذا الربان رافق عبد القادر والده، سي محي الدين، بينما كان في طفولته[1] . وفي رحلته من الإسكندرية إلى مكة حيث نال لقب الحاج، وهكذا استعاد عبد القادر بمشاعر الغبطة القوية، ذكريات الشباب التي ذكرته في نفس الوقت بالعمل الديني الأكثر أهمية عند المؤمن الحقيقي، وقد عبر عن أسفه الشديد لكون الربان (جوفا) لم ينضم إلينا لزيارة معسكره. ثم ذكر لنا اعترافه بالجميل لهذا الرجل المسيحي الذي أبدى نحو والده هو الرعاية والاحترام.

1- لم يكن الأمير "طفلا" عندما رافق والده للحج سنة 1828. لقد كان عمره حوالي 21 سنة (حسب تاريخ 1807 او 1808). وقد بقي في المشرق حوالي سنة زار خلالها مصر والحجاز والعراق وسورية. وما دام الفرنسيون يشبهون أنفسهم بالرومان فإن من عادتهم تشبيه الأمير بيوغرطة ليتم لهم ذلك الربط التاريخي المزعوم.

وكم وددنا أن نرى بحارنا البروفانسالي الأمين وهو أمام زبونه المسافر القديم، والذي تشرف بأن كان على باخرته شخصيتان بارزتان (عندئذ كانا غير معروفين للجميع) وقد أدرك أنه كان يحمل على ظهر سفينته يوغرطة الصغير، فقد كان من الصعب عليه أن يتذكر الطفل المرح الذي دوّحت به ذراعاه وابتسم له عندما مسح على رأسه، في هذا الرجل الجدي والشاحب الذي يبغض فرنسا والذي يتحلى عند قومه بلقب "قاطع رؤوس النصارى في سبيل الله"(س) .

وخلال هذا الحديث كان لدينا فرصة جديدة لتسجيل ملاحظات عن فصاحة عبد القادر. فقد كان بيانه بليغا وحيا، وبالتالي ففصاحته خصلة شائعة بين رجال قومه، أما صوته العميق النافذ ففيه حشرجة وفيه شيء من الرتابة، وكان سيل كلامه شديد التقطع، ثم أنه كان يقذف جمله أكثر مما كان يلتفّظ بها. وقد يكون السبب هو أن الأفكار كانت تنهال عليه دفعة

واحدة ويريد أن يعبر عنها جميعا في نفس الوقت، وهو عيب عادي جدا عند كثير من الذين لهم ذكاء شامل وحاضر والذين يريدون ان يلقوا بأفكارهم بسرعة كما تصوروها.

ويستعمل عبد القادر بصفة غالبة عبارة في خطابه لا يستعملها العرب عادة إلا عندما يعدون بشيء، وتلك هي عبارة "إنشاء الله" ويدغمها عبد القادر فتصبح "إشا الله". وهي عبارة تتردّد على شفتيه. وكثيرا ما يتلفظ بها دون أن يقتضي ذلك سياق الكلام، وهو بدون شك مأخوذ بالآية القرآنية التي تقول: "ولا تقولون لشيء إنّي فاعل ذلك غدا* إلاّ أن يشاء الله". وعبد القادر لا يريد أن يرتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه محمد عليه الصلاة والسلام عندما طلب النصارى أن يقص عليهم قصة أهل الكهف (السبعة الرقود) ، فأجابهم : سأقصها عليهم غدا: ناسيا أن يقول :"إنشاء الله" وهو نسيان استحق عليه العتاب.

وبعد أن تحدثنا مع الأمير حول أمور عادية شرعنا في ذكر المطالب المختلفة التي قررنا طرحها عليه، فيما يخصني قدمت إليه هدية منذ أول لقاء معه، وهي نسخة عربية خطية وجميلة جدا من كتاب (دلائل الخيرات)[1] كانت موجودة في قسنطينة، وهي تتضمن صلوات (أدعية) وغيرها من مواضيع العبادة، وقد ظهر أن عبد القادر استقبلها بغبطة شديدة نظرا للموضوعات التي عالجتها ونظرا أيضا إلى كونها آتية من مكتبة ابن عيسى، مساعد الباي أحمد[2] وأنني لم أقم بذلك دون أن يكون لي هدف من ورائه، إن هذا التكرم كان هدفه فتح خاطر الأمير للطلب الذي أنوي أن أطلبه منه. والواقع أننا عند آخر لقاء معه كنت

---

1 - كان بيربروجير قد اتبع الجيش الفرنسي في حملاته، وجمع المخطوطات من المكتبات العربية الخاصة والعامة (العائلات والمساجد والزوايا) وكان يضع تلك المخطوطات في أكياس ويحملها بمساعدة الجيش إلى العاصمة حيث كون منها نواة مكتبة الجزائر، ولكن كثيرا من تلك المخطوطات قد ضاعت مع الأفراد الذين نهبوها من مكتبات قسنطينة (مكتبة الفكون وباش تارزي وابن عيسى) وقد فعل نفس الشيء مع مكتبات تلمسان ومعسكر، كما سيذكر بعد قليل.

2 - ابنا عيسى أخوان: علي وقد كان قائد جيش الحاج أحمد الذي قاوم الفرنسيين سنوات طويلة ابتداء من عنابة سنة 1832 وما بعدها. والحاج العربي، وقد كان قاضيا وناظرا للأوقاف. والأخير هو صاحب المكتبة. غير أن كلام بيربروجير غير واضح.

طلبت منه الترخيص بالسفر لنا نحو القبلة (الجنوب) ، فهم يطلقون في التعبير المحلي ذلك على الجزء الذي يمتد بين الأطلس الصغير والصحراء ويشكل قطعة طويلة من الأرض ويضم جزءا من: "إفريقيا" المعروفة عند الجغرافيين العرب القدماء.

وأمام هذا الطلب ظهر عبد القادر في بادئ الامر محرجا كثيرا ، إن المسلمين الذين لا يكادون ينتقلون إلا للتجارة أو البحث عن عمل أو لزيارة مكة لا يمكن أن يتصوروا المغامرة وروح البحث لدى الأوروبيين .

فالمسلمون لا يفهمون كل ما يمكن أن يقود إليه البحث الحقيقي للعلم ما داموا لا يفهمون تفسير جولتنا حسب الأهداف المعلنة أعلاه، وهي الأهداف الوحيدة التي يعترفون بها، فهم لا يعوزهم افتراض جولة ذات هدف سياسي، وفي هذه الحالة يصبحون متحدين، ورغم أن الأمير أعلى مستوى من مواطنيه من عدة

وجوه، فإنه مع ذلك لا يستثنى من كل أحكامهم المسبقة. وقد أعطى الدليل على ذلك في هذه المناسبة. فقد قال لي :"وماذا ستفعل في القبلة؟ إنه لا يوجد فيها ما يستحق المشاهدة. إنها بلاد كثيرة الأحجار وقليلة الأشجار وقبائلها لا يرحبون بالأجانب". إن هناك مبررا أفضل من هذا يمكن تقديمه، ولكن كرامة الأمير منعته من ذلك. ومعنى هذا أنه لا يملك سلطة على معظم الشعوب التي تسكن هذه البلاد، وإن العدد القليل من الذين اعترفوا به لا يقبلون بسلطانه إلا بصفة إسمية فقط. ومن ثمة لا يمكنه أن يحمي بفعالية أولائك الذين يوصي بهم لديهم والذين يريدون أن يسافروا بدون سند آخر غير سنده، وإذن فإن غرضي من طلب اجتياز القبلة هو مبدئيا الحصول من عبد القادر على وسيلة اجتياز الأطلس بأمان عالما بأن هذا القائد لا يمكنه أن يحميني فيما هو أبعد من ذلك، ولكن معرفتي بأن أصعب جزء في الاكتشاف هو الجزء الواقع في يد

الأمير، نظرا لطبيعة سكانه ومعرفتي بأن أهل القبلة لا يحملون نفس الكراهية التي يحملها قبائل الأطلس للأجانب، ولا سيما للنصارى- فإنني جعلت الحصول على رخصة من الأمير أمرا هاما[1] .

وبعد اعتراضات خفيفة رضي عبد القادر بما طلبت منه، والظرف الذي سأصفه ساهم كثيرا في اتخاذ ذلك القرار. فقد شرحت له الهدف العلمي من الأسفار التي كنت قمت بها في الإيالة (الجزائر)، وهدف ما سأقوم به من أسفار أخرى، وأثناء ذلك أشرت إلى مدينة معسكر، وبعد أن رويت له كيف أنني في هذه المدينة سكنت دار عبد القادر نفسه وحدثته عن بعض وثائق الملكية التي عثرت عليها هناك والتي حملتها معي إلى الجزائر بنية تسليمها إلى من يهمه أمرها عندما

1- يفهم ان الامير حاول ثني بيربروجير عن الاتجاه نحو القبلة لعدم جدوى الرحلة إلى هناك، ولكن ذلك قد يكون حجة فقط لأنه فهم غرضه السياسي، وتفسير بيربروجير ذلك بأن الأمير لا يملك سلطة على قبائل الجنوب فيه نظر.ومن الواضح أن كليهما (الأمير وبيربروجير) كان يتحايل على صاحبه. وقد استعمل بيربروجير عدة وسائل لإغراء الأمير بمنحه الرخصة.ولكن الأمير وعده فقط أن يزوره في المدية بعد شهور، ولا ندري ما إذا تمت الزيارة والحصول على الرخصة فعلا أم لا.

يحتاج إلى ذلك، وقد ظهر أن الأمير كان مغتبطا من هذا التصرف، وهو شيء طبيعي في حد ذاته، وقد علق الأمير على ذلك بقوله:"لا أعلق كثيرا من الاهمية على وثائق ملكيتي ولا أحتاجها". ثم قال مبتسما:"لا أحد يمكنه منازعتي فيما هو لي، ولكني مسرور لأن أحد النصارى له تلك النية نحو مسلم وعدو، فإذا كانت لديك وثائق تتعلق بأناس آخرين غيري فاعطها لهم إذن لأنهم سيكونون في حاجة حقيقية إليها. والله يجازيك على هذا الفعل الخيّر". ومنذ هذه اللحظة تذللت كل الصعوبات. فقد وافق الأمير على كل ما طلبته بطريقة ودية للغاية، وقد قال لي:"لا أعتقد أنك ستقوم بهذه الرحلة الآن، نظرا لسوء الأحوال الجوية ولكن تعال إلي في الربيع في المدية ولا تفكر في الحصان ولا في المال وسترى كيف يقوم العربي بكرم الضيافة". ولقد كان الأمير في هذه الأثناء شديد الانبساط. وقد طلب منه أيضا الدكتور بوديشون، وهو أحد مرافقينا، الترخيص

له بالسفر داخل البلاد، فأعطاه الرخصة بكل رضي وتكرم، واستفسر عبد القادر بحماس عن غرض الدكتور من هذه الرحلة، وعندما علم أنها ستكون من أجل جمع أعشاب وأحجار وبعض الحيوانات، وهي رحلة شاقة وخطيرة، ضحك الأمير من قلبه مما كان يسميه الحماقات الأوروبية، وهي حماقات تؤدي إلى المعاناة الكثيرة من أجل القليل من الفائدة.

وكان علينا أن نطلب منه آخر طلب، ولكن هذا الطلب قضى على الانبساط الذي كنا نشهده. فقد لاحظنا أن ملامح الأمير الظاهرية قد أخذت لونا أكثر دكنة مما كانت عليه لدرجة أن صاحب الطلب كان عليه أن يبتعد عن موضوع طلبه، وإليك الموضوع بالضبط:

لقد اختفى شاب فرنسي من مدينة الجزائر منذ بعض الوقت ليفر من انزعاجات مادية، وجاء لاجئا عند عبد القادر، إن هذا الشاب له معرفة فائقة باللغة

العربية، وهي معرفة جعلته يميل إلى نمط حياة الاهالي. وقد طلب أن يعتنق الإسلام وهو ما قبله بحماس المؤمنين الحقيقيين الذين رحبوا به. ولقد ختنوه وسموه (عمر)[1] . وقد أرسله الأمير بعد ذلك إلى إحدى الزوايا بتلمسان ليتعلم القرآن والعلوم الدينية. ولكن هذا الشاب قد ترك في الجزائر والدا جعله فرار ابنه في حالة يأس. ولما علم هذا الوالد بقيامنا برحلتنا طلب من (ر-R)[2] الذي هو أحد أعضاء وفدنا، أن يتوسل إلى الأمير بأن يعيد إليه ابنه. وقد كان هذا الطلب بالذات هو الذي غيّر من مزاج الأمير.

لقد أجاب الأمير بقوله:"محال!" قال ذلك بثورة عندما فهم غرض المتكلم من طلبه.كان التوتر باديا

1- هو ليون روش، الذي أرسلته المخابرات الفرنسية إلى الأمير بقصد التجسس عليه، وقد يكون الوفد الفرنسي غير عالم بقصة ليون روش، وقد يكون عالما بها، ولكن أراد أن ينفي الشك عنه بطلب إعادته إلى والده، وكان بعض المحيطين بالأمير حذرين منه.وقد وصف بيربروجير الأسرى الفرنسيين والهاربين دون الإشارة إلى ليون روش من قبل إلا في آخر رحلته، فلماذا لم يقدم لهم روش المساعدات أيضا بوصفه قريبا من الأمير، بل كاتبا- مترجما عنده؟ إن تفادي الطرفين (روش والوفد) الحديث إلى بعضهما فيه أكثر من دلالة.

2 - لعله هو (رابييه) . انظر عنه هامش(ي) من تعاليق المؤلف.

على الأمير، ولا يكاد يسيطر عليه ما استكمل المترجم ترجمة الكلام العربي للسيد R. وأخيرا، وبعد تأمل دام عدة ثوان، رد الأمير بالعبارات التاليةبلهجة متقطعة تعتبر ميزة من ميزاته، وكانت هذه اللهجة بهذه المناسبة واضحة أكثر من أي وقت مضى:"إن عمر قد حضر إلينا بمحض إرادته.وهو ليس طفلا لا يعرف مغنى أفعاله، إنه رجل لقد طلب منا الضيافة فأعطيناها له.

وطلب منا أن يسلم على أيدينا ففعلنا ما طلبه.

وفي هذا الصدد نكون قد تصرفنا بما يمليه علينا ضميرنا وطبقا للشرع . إنني مترعج من وصفك لحالة والد عمر، ولكن يصعب علي أن ألبي طلبه دون التخلي عن ديني، فهل تريدون مني، أنا المسلم، أن أطلب من مسلم أن يرجع إلى النصارى؟ إن ذلك محال! ومما لا شك فيه أن الطريقة التي استقبل بها عبد القادر هذا الطلب جعلت طرح مسألة عمر من جديد غير واردة. إن هذا الشاب هو الآن قرب الأمير، وهو يوظفه ككاتب

"مترجم" ، والأمير يطلع من خلاله على الشؤون الأوروبية. ولعل نصائح عمر هي التي جعلت الأمير يشترك في عدد من الجرائد. وجاء من فرنسا بالميثاق الدستوري (Charte Constitutionnelle) لا لكي يستفيد منه العرب، ولكن من أجل معرفة نظامنا السياسي ومن أجل أن يستمد من هذه المعرفة أسلحة جديدة لمستودعه الدبلوماسي.

وبعد هذا اللقاء أمر الأمير بحصان فاخر إلى السيد قرافيني وببغال إلينا نحن الآخرين العاديين. وقد غادرنا المكان في اليوم التالي للقائنا السابق. وذهبنا لنقضي الليلة عند بني معاند وفي الطريق التقينا بشيخ بني هارون وشيخ يسر، وكلاهما كان ذاهبا إلى الأمير لإعلان خضوعه، وكان معهما بغال محملة بالنقود.

إن قبائل "بني معاند" لم يظهروا أكثر كرما لأول مرة من مواطنيهم في نفس الظروف، فقد طلبنا منهم كوخا مناسبا للسيد قرافيني الذي بدا عليه التعب

والمعاناة، ولكنهم رفضوا، وكان رفضهم أشد إهانة من حيث الشكل الذي قدموه به وأكثر من حيث المعنى، لأن التبرير الذي أعطوه كان صوابا ولو أهم قدموه بطريقة أقل غلظة. فقد قالوا:"إهم لا يستطيعون إبقاء نسائهم وأطفالهم في العراء لإيواء وكيل السلطان. إن هذا النقاش لم يسمح لنا بالمزيد معهم. وخلال هذا النقاش كان سي الملياني الحجوطي الذي سبق الحديث عنه ممسكا بشيخ الدوار من صدرة برنوسه، وكان يهزه من وقت لآخر ويضيق خناقه لدرجة تقطع عليه أنفاسه، وقد ظهر من نبرة حديث (الملياني) وفعله تناقض عجيب، فالذي يسمعه دون أن يراه يعتقد أنه لا يستعمل أي شيء عدا سلاح القول البياني بينما كان المراوغ العربي يضيف حركات تعبيرية قوية يمكنها أن تخنق شيخا أقل صلابة من شيخ "بني معاند".

ورغم الوسائل الدبلوماسية التي استعملها الملياني فإننا لم نحصل على الكوخ (القوربي) المرغوب فيه. فقد

رموا بنا في مخزن سيء مكشوف. وكان تبن سقفه علفا للحيوانات منذ زمن بعيد، إن مضيفينا وقد أصبحوا مستأنسين، قدموا لنا عشاء لذيذا، كما حملوا الشعير والتبن لمطايانا. وكل ذلك دون مقابل مالي، ورغم عدم راحة وضعنا في الهواء الطلق فقد بدأنا نغرق في النوم فإذا صرخات وصليل سيوف قد أيقظتنا فجأة، فظننا أنهم أولاد خلفون الذين كانوا قد أخافونا بهم عند المرور السابق، جاؤوا للقبض علينا، ولكننا تعرفنا من خلال ضوء نار نزلتنا أن دليلينا سي الملياني ومصطفى، قد دخلا في عراك، وقد تدخل النصارى والمسلمون للإصلاح بينهما، لكن الإصلاح لم يتحقق إلا نصفه، فقد دخلت السيوف في الأغماد ولكن الكراهية لم تخرج من صدري هذين العدوين.

وكان سي الملياني الذي رجع إلى أخذ مكانه قرب النار يتميز صوته غيظا وتهديدا، وبينما هو يبحث عن جمرة لإشعال غليونه كان يقول:"سأقتله بالسكين".

إن هذا الحادث كان هو الحادث الأخير في رحلتنا ، وفي 05 يناير 1838 رجعنا كلنا إلى مدينة الجزائر دون أن يحدث لنا ما يستحق الذكر.

انتهت الترجمة يوم 06 نوفمبر 1994

بمدينة مينيا بوليس (أمريكا).

تعاليق المؤلف:

أ — الأسماء الأوروبية هي : قرافيني، القنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية والوكيل السابق أو المكلف بأعمال الأمير. ثم السادة بوديشون وهو طبيب، والمحامي رانك، وكاتب الضبط رابييه، والتاجر أودريك، والمترجم مانوشي، ومحافظ المكتبة والمتحف بالجزائر بيربروجير.

ب — إن العرب يعينون أيام الأسبوع حسب نظام أعدادها ما دام يوم الجمعة الذي يسمونه (يوم الجمعة) أي التجمع، لأنه اليوم الذي يجتمعون فيه في المسجد.

ج — وادي الزيتون يعني وادي الزيتون المغروس، أما الزيتون البري فيسمى الزبوج.

د — هي قبائل المخزن أو الجيش الاحتياطي، وهي التي ضمها الأتراك كجنود احتياطيين من الأهالي، وكانت تكمل نظامهم العسكري مما جعلهم لا يحتاجون إلى جيش تركي كثير العدد. وفي مقابل الخدمة التي تؤديها

قبائل المخزن للداي، كانت تعفى من الضرائب وتتمتع ببعض الامتيازات الأخرى، وقد كانت هناك قبائل "مخزنية" في جميع القرى وفي جميع النقاط الهامة من البلاد. إنها شبكة واسعة تغطي كل الجزائر وتشمل بقية السكان الأهالي، لقد تركت (فرنسا) هذه المؤسسة تؤول إلى الجزائر بينما هي لا تطلب سوى أن تصبح تابعة لنا. ومع ذلك فإن الفائدة التي جنيناها من القبائل المخزنية، وهي الدوائر والزمالة – قبائل مخزن وهران– كفيلة بأن تعطينا فكرة عن النتائج التي يمكن أن تتحقق بتوسيع هذه الوظيفة من (المليشيات) التي أصبحت تتحسر على وضعها القديم، وهم، من كره جيرانهم لهم – لأنهم طالما سلطوا عليهم العقوبات زمن الأتراك – تابعون لنا بحكم سوابقهم ووضعهم الحالي، وهم يعرفون مع ذلك كيف يفرضون الاحترام رغم تخلي الآخرين عنهم.

هـــ - انظر الملحق، عن الملاحظات المضافة إلى نص ديفونتين ودي بيسونيل (هذا الملحق لم نترجمه، **المترجم**).

و – سنرى من أحد التعاليق التي أضفناها للمقتطفات المذكورة في الملحق أن الرحالة والجغرافيين قد خلطوا بين "برج حمزة" و"سور الغزلان" وجعلوا منهما واحدا ونفس المكان، بينما هما يبعدان عن بعضهما بثمانية فراسخ.

ز – ينحدر البركاني من عائلة مرابطين حكمت في أزمنة غابرة قبائل جبل البركاني (البراكنة؟) الواقع غربي متيجة. إنه أفضل رجل حرب عند الأمير، وقد كلفه أخيرا وأعطاه مختلف الصلاحيات لإخضاع سكان القبلة أو الجنوب، والبركاني الآن هو باي (كذا) شرشال.

ح – إنه هو القائد الذي نسميه- دون أن يعرف أحد لماذا-:"ثعبان الصحراء العظيم" لكن اللقب الذي

يتسمى به حقيقة في رسائله يعتبر أكثر أصالة، وهو "فارس السيف".

ط – هذه الكلمة تعني الجنوب، وهو الإسم الذي أعطي في جيش عبد القادر للحدود الجنوبية للجزائر، وهي المحاذية للصحراء.

ي – السيد رابييه RABIER هو كاتب المحمكة العليا- الجزائر-، وهو أحد مرافقينا في الرحلة، وقد قام بتصوير ملامح الأمير، وهو في حالة نادرة من الانبساط. إن اللوحة الزيتية الرائعة التي رسمها رابييه للأمير قد أصبحت في ملكية السيد الكونت دي كلاري.

س – إن هذا الاسم في الواقع هو أحد الأسماء التي تقلدها عبد القادر، ولكي نفهمه علينا أن نعرف أن رؤوس المسيحيين عند المسلمين تمنح بشأنها مكافآت مالية، وإن الجبناء في حالة الحرب والغنائم المربحة هم الذين يقطعون الرؤوس عن الأجسام التي قتل الشجعان

أصحابها، لكن "المؤمن" لا يكتفي بالجزاء الدنيوي على هذه العملية لأن ذلك يعتبر عنده جزاء. أما جزاؤه الحقيقي الذي ينتظره فهو جزاء الآخرة ، عندئذ فقط يكون له الحق في أن يتسمى بقاطع رؤوس المسيحيين "في سبيل الله". وهناك عدد قليل فقط من هذا الصنف من الناس.

تعاليق المترجم:

(*) لم تترجم هذه المقتطفات لبعدها عن غرضنا الآن، وهي طويلة – من صفحة 59 إلى صفحة 80 وتتضمن معلومات قديمة حررها الإمبراطور أنطونين، ومقتطفات من كتابات بيسونيل، والدكتور شو، وديفونتين، وقد كرر بيربروجير في تقديم المقتطفات حماسه، بل دعوته للقيام بحملة عسكرية فرنسية ضد منطقة "يحمزة" وكون رحلته والمقتطفات ستكون مفيدة للمشاركين في الحملة، وقد قام بيربروجير أيضا ببعض التعاليق على المقتطفات وتصحيح بعض ما رآه فيها من أخطاء. ورغم أن بيربروجير قد ذكر أنه اقتطف أيضا من رحلة الدكتور بوديشون فإننا لم نجدها ضمن المقتطفات، ولعلها نشرت منفصلة. (المترجم).

(**) يشير بيربروجير إلى نفسه، والوفد المرافق له، وهو يصور في بقية الفقرة الرأي العام الفرنسي عندئذ، الذي كان يسوده الخوف من عواقب القيام بالرحلة، وأفراد هذه الرحلة الذين ركبوا الأخطار وغامروا إلى أن وصلوا إلى هدفهم وعادوا سالمين...

(***) هذا تعبير استعمله الرومان ضد أعدائهم القرطاجنيين (البونيقيين)، وهو مثل التعبير الفرنسي "شغل عربي" أو "صنعة عربية" عندما يريدون أن يصفوا عملا أو شيئا ناقصا أو فيه خلط، وهو من عقد التفوق الحضاري والهيمنة الإمبريالية .

(****) أوجيا: ملك أسطوري في الإلياذة. وكانت اسطبلاته تحتوي على 300 ثور، ولم ينظف منذ ثلاثين عاما، وقد نظفه هرقل بتحويل مجرى النهر إليه بشرط تعويضه بعُشر القطيع فخالف الملك العقد فقتله هرقل. (المترجم).

الفهـــــارس

فهرس الأماكن

فهرس الأعلام

فهرس للشعوب والقبائل

فهرس الكتب والدوريات

تم الطبع في مطبعة

الطباعة العصرية

جانفي 2006

9 شارع سعيدي أحمد، برج الكيفان – الجزائر

هـ : 16 52 49 070

http://albordj.blogspot.com

Publications du Centre Nationale d'Etudes et Recherche sur le Mouvement National et la Révolution du 1 Novembre 54



Voyage au Camp d'Abd-el-Kader

(à Hamza…en Décembre 1837 et Janvier 1838)

Adrien Berbrugger

Paris, 1839

Traduit en arabe par
Dr. BELKACEM SAADALLAH

http://albordj.blogspot.com